

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة ق

هي مكة

إلاية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » فذنية

آياتها ٤٥ — نزلت بعد المرسلات

وهي في : اثبات النبوة والحشر

وذلك في مبشرين

الأوب : في الطرف السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم في ابس من خاي جنيد » .

مبحث الثاني . في الكلام على انوث وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ،

وفتحرك يرم تيممة ، مؤقوتة : « وانا خلقنا الانسان ونهله بالتوسوس به نفسه » إلى آخر السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ نَحْنُ نَحْمُوهَا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ *
 أَوَدَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ
 حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
 فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
 وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ *
 رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
 الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
 الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَمِئذِنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ
 خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى
 الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ
 سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *
 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
 غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَقِيدٍ * أَتَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
 كَفَّارٍ عَقِيدٍ * مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَا فِي
 الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ
 لَا تَخْتَصِمُوا لَدُنِّي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدُنِّي وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ *
 يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *
 هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ *
 ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا
 قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْنًا فَنسَوْنَ فِي الْبِلَادِ هَالِكِينَ مِنْ حَيْصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَدِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُتُوبٍ * فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
 قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ
 يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا
 نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرًّا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
 يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ *

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأول في تفسير البسملة .

المقام الثاني في معنى « ق » .

المقام الثالث في تفسير الآيات من أول السورة إلى قوله « بل هم في لبس من خلق جديد » .

المقام الأول في تفسير البسملة

للرحلة في هذه السورة أدوار ثلاثة : دور البداية ، ودور أهم النشاط في الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك
 كأدوار الانسان ، فهو شاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوار قصة يوسف :

- (١) فهو مع اخوته في مشاكل الحسد ، والمافسة ، والاتقاء في البئر ، ووقوعه في شرك امرأة العزيز .
- (٢) ثم في حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، واكرامه اخوته وأبويه .
- (٣) ثم انتهى إلى الله وقال : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات
 والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصابحين » :

- (١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بمقولههم كسقراط ، فأول حياته شك في نظام العالم ، وفي خالقه ،
 وعموم علمه ، في مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه في الحب إلى آخر ما تقدم .
- (٢) ثم انه عثر على رأى أنكساغورس ، ذعرى شيئاً من الأنوية ، ثم استكمل علمه .
- (٣) ثم انتهى إلى انقضاء حياته .

- (١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو في مكة في مشاكل ومجاذلات ومخاضات مع كفار قريش
- (٢) وهو في المدينة فاتح البلاد وناسر الاسلام .
- (٣) ولما انتهى الأمر رجع إلى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأولها انكار لتو : والبعث ، وأوسطها الحث على النظري السماء وزيتها وبهجة
 بنشر ، في الأرض وجبالها الناضحة ، وزرودها ، النضرات ، وطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودورها
 الحسنة . من عد إلى أصحاب الأبيكة بقرم نبع ، وساستحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تفرغ

الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، في مجالس أنسه ، وعند اخوته ، وفي خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى اذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعادى المحبون ، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبه ، فلا جهنم بأهلها ، ورحم أعظم الرجاء بملء الجنة بذوى الايمان والصلاح ، ذلك لأنه لا يجعل المتقين كالفجار ، ولا المؤمنين كالكفار ، ولو استوى الخبيث والطيب لسكان خلق هذه العوالم باطلا ، ولكن نظامه حائلا ، ولكن انظام معلوم ، ودرامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وانما منى الانسان بهذه الوقائع ، واتصف بتلك المناقب والمناقب لأنه لا يتسنى له الارتقاء الى الملاء الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى اذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والطلع ، فبينما هو ينظر في السماء كيف بنيت ، وفي الأرض كيف ازينت ، وفي الزروع كيف ابتهجت ، إذا به ارتفع الى عالم أجل ، وبهاء أكمل ، ومقام أرفع ، فعناية الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلام يصعد الانسان عليها الى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياه محو وعلم وعمل ، ليفارقها وهو مسرور ، لا محتبط وهو مجبور . والى هنا تم الكلام على المقام الأول في تفسير البسالة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

المقام الثاني في معنى : ق

قد تقدم الكلام في ﴿ آل عمران ﴾ وفي غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويس و ما يبينها ، ووضع فيها بعض الحكم والمجائب التي تضمنتها هذه الحروف التي في أوائل السور ، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف « ق » الذي في أول هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدمه فأقول : اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الاسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتي عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون ، ويمتعدون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويدلون وهم متفردون .

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العميميتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة النفس ، وسابه معرفة الآفاق . أما مابه معرفة النفس ، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامر في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث في عجائبها وبدائعها ، وحكمهما وغرائبهما ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارف بما يحيط به من العوالم . علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لا يعرفون من القرآن إلا الاحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لا يعلمون إلهو ، وما هو إلا علم انشاء بعض المبادات نظادرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذي يقبل المسلمون يمد يواطب على شرط الصلاة . ويواظب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للتبسيل في الصلاة ، وفي الوقت الذي يطلق لسانه ان ينادى ، ويغتاب الاخوان ، مستحلا ذلك لايبالي .

علم الله أننا نحن الآن سترك مكان النفس فوجهه ، ولا يعرف كيف سنها ، ولا كيف نحسن أخلاقها .

ولا كيف نسقلها بالمعارف الحقّة ، والعلوم المكتسبة ، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسماء ، وأنوار ، فأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث في عقدها لتتخلى بها بعد التخلي من الرذائل :

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، ويتبع الآخرون الأولين ، ولا ينظرون الى القرآن إلا نظرة البركة ، لانظرة الحكمة والموعظة ، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شيء ، وما القرآن إلا بركة ، واذا ذكر آية في الاستدلال فانما ننبع من قبلنا ، وما لم يذكر في الفقه من الآيات فلانظرنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واعدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلا يتحدثون بلغتهم ولا بدينتهم ولا بلجنسهم ولا بوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة بالتعليم وان اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أمم الاسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولا منشأهم ، ولا أحوالهم الاجتماعية دراسة تشوّقهم الى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان ويتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون الى أمم الترك الذين اتحدوا معهم في الدين وفي الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدثون مع جميع الأمم الاسلامية ، ويكونون عوننا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون هكذا في هذا الزمان ضالين نائمين ، فلا علوم ولا تهذيب ولا حكمة فنكون تعريتين ، وتدوسنا الفريجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا نجعلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذي سلطهم ، وجهاننا هو الذي أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لتتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » في سورة الحجرات فلتعارف لمن يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلا تعارف . إن التعارف ان يكون إلا بعلم ، فاذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، واذا لم تعلم أن خالدنا من أقاربك لم تحافظ عليه ، واذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازاة هذا بما كان عليه آباؤهم .

اذا لم يفعلوا ذلك وغيروه كدراسة الأرض التي يسكنونها ، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها ، ويعرفوا معانيها وحاصلاتها وخبراتها وما أشبه ذلك ، اذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ انهم اذا رأوا ذلا جامعا ، وثعة متعده ، وأما جامحة لاذلالهم ، وأرضا ذات خبرات يطمع العدو في الانتفاع بها ، هناك هناك تكون الخيبة . حية الاسلام والمحفة على الأوطان ، ومجراة الزمان ، وحفظ الاخوان ، واذا لم يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التي تنتج من اتحادهم فكيف يتحدثون ؟ واذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الاسلامية فكيف يتحدثون معها ؟ واذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم في الارض كما ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدثون معها على رقي الانسانية ؟ .

كل هذه المعاني داخلة في قوله تعالى : « لتعارفوا » ، بعير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون رازم في الارض ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن ، من ساءل رسول الله ﷺ فسكن رحمة للعالمين ، ولقمت بالأرض بعد أن تعلم وترقى ، فلانستقنا أم الممالك

المتحدة في التعليم ، والتهديب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التي جعلوها للتهديب لا للتعذيب . وأقول أيضا : علم الله أن هذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعدّه له ؟ الدواء « ق » ، ولعلك تقول : وهل هذه المعاني كلها في « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يتصرفون على علم الفقه ويجهلون في الغالب آداب النفوس ، ويشنت شملهم ، ويسبقهم غيرهم ، وهكذا ثم يصف بها الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أول حرف في القرآن المذكور في آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : إذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح كل منكم كالغريق ، وتخطبتم في دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلاوة الزمن ، وأتم فرق منشا كون ، وأفذاذ متفرقون ، وبنذتم فهم القرآن ، فلا ذكركم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادّعوا أن الدين ماعرفوه ، وماسواه فلاحاجة إليه ، كذلك لا تصغوا لقول العباد ، ولا تقول الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فإن كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وماعداه فهو في جهالة ، لا تسمعوا هؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ، فقد جرت بتم صغار الصوفية ، وجرت بتم صغار الفقهاء ، وجرت بتم الأغنياء (١) وجرت بتم العباد [بشد يد الباء] والصالحين ، فقد استبد كل فريق بناحيته ، واستقل بأمره ، وجهل ما عند سواه ، ففترقت الأمم الإسلامية شذرمذرا ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الأمم في الحياة الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما في القرآن فلتقرؤوه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات هذه المعاني كلها مخبوءة في كلمة « ق » التي جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » المشتملتين على ما يصفى النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه

ألا تعجب معي بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : ان [ق] اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى الذي أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

المقام الثالث في تفسير الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ق ﴿ والقرآن المجيد ﴾) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبين (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بحجب وهو أن يندبرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا صاحبا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظنهم مكروه وعلمه لزمه أن يندبرهم (فقال الكافرون هذا شيء عجيب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أنذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع اذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن الهم والعادة والامكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى مانا كل من أجسادهم بعد موتهم ، انهم لما استبعدوا البعث ردّ الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجوعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ، ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم انهم جاءوا بما هو أفضح مما قبله . فاستحق الاضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوة الثابتة بالجزات من أوّل وهجرة سيدنا محمد (لما

(١) هذه أقسام المغرورين المذكورة في سورة [آل عمران] عند آية : (وعسى أنهم في دينهم ما كانوا

يقفرون » ما خصا من الإحياء للنزلى هـ المؤلف

جامعهم فهم في أمر مريج) مضطرب ، يقال مريج الخائم في الأصعب إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر
 ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يشبتون على رأي (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله وبالبعث (إلى السماء فوقهم)
 إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (وماها
 من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السموات ، بل الرأي
 الحديث مجتزأ للقرآن ، ويانه أن العلماء في عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ،
 وأطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شيء ، وأول كل شيء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس
 وإنما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على
 ألف ألف سنة نورية ، ومعوم أن نور الشمس [التي تبعد عنا مقدار سيرا القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس
 وستين سنة] يصل إلينا في مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء يحمل على شيء موجود ،
 والنبي الموجود هو الأثير ، فلأن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لا تقطع سيرا النور إلى الأرض ولم يره .
 هذا هو السر في قوله تعالى : « وماها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لا تقطع سيرا
 النور إلينا ، ومعوم أن آراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، وبينهما فضاء ، كما يظن
 لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء الدنيا ، جاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج في السماء ، وبعبارة
 أخرى لا خلا في العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأي بعض القدماء في « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا
 جوهرين أو عرضين ، فإن كانا جوهرين فليس في العالم خلا لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وإن كانا عرضين
 فالعرض لا بد له من جوهر يقوم به ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهرًا فهو معلوم من سابقه ، فاذن
 العالم لا خلا فيه كما ذكرناه في ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء
 في هذه الآية « وماها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) جبالات ثوابت
 (وأبنتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكري لكل عبد منيب) راجع إلى
 ربه ، متفكر في عجائب صنعته ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسي ،
 وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى
 وإن كانا في الاعراب منتصيين بالفعل الأخير ، فإن رفعت السماء فلذكراه ، وإن زينتها بالكواكب والنور
 فليتبصر بما يراه ، وإن بسطت الأرض وأرسيتهما بالجبالات فكذلك ، وإن أبنت النبات زينة للأرض ، فليعتبر
 ويدكر بمراه (وزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأبنتنا به جنت) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد)
 وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالخنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا
 أو حوامل ، يقال : أسقت الشاة إذا حلت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود
 بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكبه ، أولئك ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أي أبنتنا رزقا للعباد كما
 جعلناها تبصرة وذكري للئيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهي ما كل
 الآكسين من نوع الإنسان « كلاً تمت هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطمع
 عبادنا ونرزقهم ولكننا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعالما مقروءا ، إلا للمتأزنين
 من نوع الإنسان ، فانخراس للنبات دارسون ، واعاظة والخاصة منها آكاون ، ولما كانت دراسة النباتات

والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جديبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حيت هاهنا البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون ويمرّن ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد فوت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليتس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقنعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعز بعد الدل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت » فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس انتماسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليهتمح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العالمية ، فتفكر فيها قدمته فى (سورة الشعراء) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة اتى تفرعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، ولزهرة تنوعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لاساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سرالبدع الالهية ، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لىكل عبسدينيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قباهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل) كل واحد أو قوم منهم الخ (خلق وعيد) فوجب وحل عليه وعيدى فلتسد يا محمد واتستعذوا انزول العذاب يا أهل مكة ، وانظر أيها الحكيم كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا لىكون الاعتدال .

يقول الله : ها أنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأولين فى السور المتقدمة ، فلا ذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسما والارض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهداكلمه ، وأذكركم . لأم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضاهاتتميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جليل أن يجعل هذا التفصيل ليرافعا للإمامة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصح السامون أمة حكمة وعلم « وينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

[تذكرة] هذه الجلالة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، واقد صدق ظى وأجبت جميع مطالبى واتى أجد الله فقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن افكركم قد عمت مسلمى بلاد الصين وتركستان لصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قل تعالى (أبعيننا بالخلق الأول) أى أمجزنا عن الابداء حتى نجز عن الاعادة ، يقال حى بالأمر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهجرة للانكار (بل هم فى ابس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لا ينسكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى خاط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحرهم ، وذلك تسويله لإبهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأول من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وكرته ، وعلى الماركة الرقنين حركات الانسان وسكانته ، وث أحوال يوم القيامة قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ما تحدث به نفسه ، وهو ما يخطر بالبال ،

جاءهم فهم في أمر مريح) مضطرب ، يقال مريح الخاتم في الأصعب إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر
ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله وبالبعث (إلى السماء فوقهم)
إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم (كيف بيناها) رفعناها بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (وماها
من فروج) فتوق بأن خلقها ملاء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث في عالم السموات ، بل الرأى
الحديث مجزة للقرآن ، ويانه أن العلماء في عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ،
وأطلق من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شيء ، وأول كل شيء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس
وإنما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما يصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على
ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [التي تبعد عنا مقدار سيرالقطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس
وستين سنة] يصل إلينا في مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج
سيرالنور إلى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء يحمل على شيء موجود ،
والشيء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانتقطع سيرالنور إلى الأرض ولم نره .
هذا هو السر في قوله تعالى : « وماها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانتقطع سير
النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، وبينهما فضاء ، كما يظن
لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لافروج في السماء ، وبعبارة
أخرى لاختلاء في العالم .

رأى التدماء

هكذا كان رأى بعض التدماء في « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا
جوهرين أو عرضين ، فان كانا جوهرين فليس في العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وان كانا عرضين
فالعرض لا بد له من جوهر يقوم به ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرًا فهو معلوم من سابقه ، فأذن
العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه في ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هوعين ما جاء
في هذه الآية « وماها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) جبالا ثوابت
(وأثبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكري لسكل عبد منيب) راجع الى
ربه ، متفكر في عجائب صنعه ، يقول الله : بيننا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسي ،
وأثبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى
وان كانا في الاعراب متصيين بالفعل الأخير ، فان رفعت السماء فلذكراه ، وان زينتها بالكواكب والنور
فليتبر بما براه ، وان بسطت الأرض وأرسيها بالجبال فكذلك ، وان أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر
ويذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأثبتنا به جنات) أشجارا ونمارا (وحب الحصيد)
وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالخنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا
أوحوامل ، يقال : أسقت الشاة إذا حلت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود
بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه . أول كثر ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أثبتنا رزقا للعباد كما
جعلناها تبصرة وذكري للنيب منهم ، فلتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهي ما كل
لا يمين من نوع الانسان « كلا ثم هؤلا ، وهؤلا من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطمع
عبادنا بزرقيهم ولكنا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلمًا مقروءا ، إلا للمتأزبن
من نوع الانسان ، فالخواص بنبات دارس . والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات

والاستفادة من علامهما لم يظهر له . مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جذبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حيت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون ويمشون ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد فوت ، ثم تيمس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليتمس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقتضى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فاصحة بعد المرض ، والعز بعد اللذ ، وهكذا مما لانهاية له ، فليتمس الحياة من الموت » فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للناس اتناسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العالمية ، فتفكر فيما قدمته فى (سورة الشعراء) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة انى تفرعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، ولزهره تنوعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شغل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لاساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سرا لدفع الالهية ، وهناك ثم هالك تفهم قرله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد وثود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل) كل واحد أوقوم منهم الخ (لحق وعيد) فوجب وحل عليه وعيدى فلتسد يا محمد واتستعدوا لنزول العذاب بأهل مكة ، وانظر أيها الحكيم كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكرها فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : ها أتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأولين فى السور المتقدمة ، فلا ذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهل كوا .

يقول الله : أذكركم بالسما والارض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهداكاه ، وأذكركم بلأم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هل كوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضها تميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جيل أن يجعل هذا التفسير ناعا للامة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصح السامون أمة حكمة وعلم « ولينصروا الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

[تذكرة] هذه الجلة كتبها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن بطبع الطبعة الأولى ، واقد صدق ظنى وأجريت جميع مطالبى وانى أجد الله فاقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن افكره قد عمت مساهى بلاد الصين والتركمان لصيدية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى (أفبعينا بالخلق الأول) أى أمجزنا عن الابداء حتى نهجز عن الاعادة ، يقال نبي بالأمس اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم فى ابس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى خاط وشبهة ، قد امس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذات تسويله لا يهيم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادد . انتهى المبحث الأول من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وكرته ، وعلى الملائكة المرافين حركات الانسان وسكاته ، وفى أحوال يوم القيامة قال الله تعالى (واقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ما يتحدث به نفسه . وهو ما ينحصر بالبال ،

المفروضة ، وللإسلام أن يذاع وينتشر كالوليد بن الغيرة لما منع بنى أخيه عنه (متد) متمد (مريب) شك في الله وفي دينه (الذى جعل مع الله إلهاً آخر) بدل من ككل كفار ، وقوله (فألتياه) تكوير للتأكيد (في العذاب الشديد) فقال الكافر: يارب ان قرينى من الشياطين أطغاني (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له (ربنا ما أطغيتك ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان ديدنه وطبعه فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه الى الحق ، وهذا كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لا تختصموا لى) فى موقف الحساب إذ لا فائدة فيه (وقد قدمت اليكم بالوعيد) وقد أوعدتكم بعداى على الطغيان فى كسبى وعلى أسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فعسى بالبلاء (ما يبذل القول لى) أى بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن تبدل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أبا بظلام للبعيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، وإما للبلابة ، يقول الله : واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالجميد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جيء بهما للتخييل والتصوير ، والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحدثها لا تزال فى شغف بدخول العصاة فيها ، فهى كالهمم الذى لا يشبع ، فكما أن الجنة لا نهاية لها ، هكذا النار لا نهاية لها ، ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سبق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأ وحاشىء فنقول : ألسنت قد أفسمت لئلا تبنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ وتقول قفا قطع امتلات وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش [وفى رواية] رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها الى بعض وتقول قطع بعزتك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة » . ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع الى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصل ، فإذا سمعت أن الرب أسكت النار زلات فإظاظ ، وإن خلق للجنة قوما يسكنون فى فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فإن الحياة طائفة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ، فتراه لا يدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فانسبات يعيش فى النسيم ، وخلق لافل نباتا يعيش فيه ، ولم يدر بالبحر ولا البر من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولا برودة الناج ، ولا حرارة القيط ، ولا غور البحر بمناجات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فاصمة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذا الأحاديث لا يدرك سرها ولا المقصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدعشة ، واذ ذلك يدرك الناس ماذا يقصد النبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى ولا حاجة الى التويل (وأرلفت الجنة) قربت وأدريت (للقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير بعيد) ويقال لهم (هذا ما ترعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على أسنة الأنبياء ، وقوله (سكل أواب) رجاع عن المعصية الى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حيط) أى حافظ لحجوده (من خشى الرحمن بالعب) أى خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره ، وفى احلارة بحيث لا يرا أسد (رجاء بق بسبب) مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوه) بإسلام) سائمين من العذاب وزوال النعم . أو مسلما عليكم من الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لا موت فيها ، والمنازاد هو سائر كقوله تعالى « ادخارها خالدين »

ثم ان الناس يسألون الله ما يشتهون في الجنة فيعطون ما يسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لم يمشعوا فيها ولدينا مزيد) مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن أجلها النظر الى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب في كل جمعة في دار كرامته ، فهذا من المزيد . (وكم أهلكتنا قباهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشاً) قوة كعاد وعمود وقوم تبع (فقبوا في البلاد) التقيب التقيب عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا في البلاد ، وسلكوا كل طريق ، وتصرفوا فيها ، وجالوا في الأرض كل مجال حذر الموت (هل من محيص) أى هل لهم محيص من الله : أى فلم يجدوا لهم مهرباً من أمر الله ، ولا مفرّاً من الموت الذى يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فهم أيضاً تصرفوا وتقلبوا في البلاد ، فلامهرب لهم من عذاب الله إما بانزال العذاب عليهم كعاد وعمود ، وإما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ما تقدم في هذه السورة وما قبلها من أبداع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلاً آداب الأمم مع النبي ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس ، وكيف يكون الصالح ، وكيف يسان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعاملون وينظرون في خلق السموات والأرض ، وفي العجائب المدهشة ، بحيث ان هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ [ق] الذى شرحناه لك قريباً يكفيان لرقى الأمة الاسلامية واسعادها متى رجعوا إليها ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويخيم الأمن في ربوع الأم الاسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن في ذلك) الذى تقدم في السورتين لأن الأولى للتخيلية والثانية للتجلية (لذكرى) لذكرى (لمن كان له قلب) أى قاب واع يتفكر في حقائق الأشياء المذكورة فيه (وألقى السمع) أى أصغى لاستماعه (وهو شهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفي تنكير القلب اشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كالأقلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) إعيايه وآعب فحزن قدملاً ناهما بالعجائب والانزال زبدها كل حين لأنها لا ياحتما التعب والاعيايه ، فاقروا وعجبوا لما التى لانهاية لمداها ، ولتوجه قلوبكم اليها ولتلقوا فيما تسمعون من اقوال السمع وأتمم حاضر الزهن فجاءت بنا لاتقناهي ، ولتكدبوا اليهود الذين قالوا [ان الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أو طأ الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فحزن لايمسنا لغوب ، وعجبنا لما لا تقف عند حد] (فاصبر على ما يقولون) على ما يقوله المشركون من انكارهم البعث فاني خلقت العالم بلا إعيايه ، فاذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح بحمدي بك) وزهه عن العجز عن أى تممكن كان كالبعث حامد له على ما أنعم عليك من اصابة الحق وغيرها من نعم الكثرة التى لانهايه (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول « سبحان الله والحمد لله » في أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر ، أو العصر فقط ، وفي الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أو التمجيد ، والرابع النوافل بعد الصلوات ، وانما سميت هذه الصلوات تسبيحاً تسمية بالجزء منها ، وهو ما فى ركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة ، والتسبيح في الثانى صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولا جرم أن الحمد مذكور في الفاتحة والتسبيح في الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيتك خفوق النجم] وفي حديث البخارى عن ابن عباس قل : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعنى قوله « وأدبار

السجود» . وفي حديث مسلم : تحديده التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .
 وطى هذا يكون التسبيح أهم منه ومن الصلاة ، والآية تشمل القسمين ، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وليصل النوافل التي هي وقت أدبار السجود ، وليصل بالليل ، وليصبح بعد الصلوات كل ذلك داخل في الآية ، فكاه تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأفعال كلها (واستمع) يا محمد لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وما هو ذلك الخبر ؟ أهـم يخرجون من القبور (يوم ينادى المناد) وهو اسرافيل ، وأجبرائيل ، فيقول : أيها العظام البالية ، والأوصال المقطعة ، واللحوم المتزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم ينادى المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى السكل على السواء ، ونظيره في الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتي إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قرب ، وبأمرهم بالسوم وبالحياة وبالاستيقاظ بالأكل والشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فسداؤه قريب في الدنيا وفي الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أي النفخة الثانية ، وهذا يدل من يوم ينادى المناد ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كاه من أول السورة إلى هذه الآية (إنا نحن نحيي ونميت) أي نحيي في الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) في الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أي يوم تتصدع عنهم فتخرج الموتى من صا وعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هيئ ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفيها ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أي ما أنت بمساط عليهم ، إنما أنت داع وبعث ، وأما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان (نذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما أنت منذر من يخشاها » إذ لا ينفع التذكير إلا فيه . انتهى الفسیر بالله على

في هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى في عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .
 اذانية في عجب الأرض في قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكري لكل عبد منيب » .
 الثالثة في قوله تعالى : « إذ يبتلي الملقين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أظنبت في هذا التفسير في السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائها ونظيرها في البقرة وفي آل عمران ، وفي الأنعام ، وفي سور كبيرة فلترجع إليها .

اللطيفة الثانية في عجائب الأرض والنبات

لقد جاء في سورة الأنعام والشعراء وغيرها بداع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التي تمتد بالآلاف قد ظهر تدوعها في الزهرة وتقسيمها نجوم منها ، وكذلك في كثير من السور ولكن لا بد من أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك في الحدائق والجنات ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نكترفها من الكلام

على الجحائب النباتية ، فلنقم معي ، ولنطف حدائق الأرض ، ولننظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لا يقصدون إلا لذات الجسم التي لها حد محدود ، ومقدار موقوف ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » وأن ترتقي عن الطوائف التي قال فيها : « رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن عليها نورا لقلبك ، لجسمك يتعذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبته الله بيده ، خطه في الأرض ورسمه وهندسه وزوقه ، ورفع الأستار عن بعض القلوب ، وقال : يا عبادي انظروا جلالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسرى بين أيديهم وبأيمنهم بشراكم اليوم » ولأنور إلا ما اكتسب الفكر ، واقتبس النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصورة المنمقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللماظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التي اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هي الصحائف الأربعة التي يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابي ، وكتاب نفوسكم كتابي ، وكتاب الدين كتابي ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نوري على عبادي فهو كتابي ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحي والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، ومهدات لكتاب النفس وكتاب الأتقى ، وكل مقرأتموه فى الطبيعة وانه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى الجحائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا ، إن لللائكة أجنحة منى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليردد الناس فكرا فى النبات وغيره تزداد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن النظر فى النبات ازدياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماء .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفه الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والتستق ، والسمان ، والصنوبر والبلاوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج .

(١) — الثمر الذى هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقمة . مخانف الألوان ، على نواة قشرة رقيقة ، حريرية ، ليفية ، لينة ، لاس ، صلبة المنسج ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة ثغرة ، وفى الجانب المقابل ثغرة مستطيلة ، فيها حشوييفى ، وعلى رأس الثمرة من خارج ثغرة ، عليها شظيات متفرقة متشعبة بالثمر ، ومادة هذه الثمرة قبل النضج خضراء . وبعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للثمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شوكاه ، وتديره راحة كثره . عليه قشرة كسيفة ليفية ثخينة ، مجوثة من داخل ، واسعة ، فيه خزان متفرقة . فيها ثمار منقسمة ، سائما احبوب مرصعة ، أشكائها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة حشوية ، رخوة ، فى داخل : اللبنة ، على خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها شظيات ناتئة زيرية ، وحوها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، في جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، في داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، في داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزانين مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منحزقة أقسامها ، مهندمة وإذا فصلت هذه القشرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطي عليه قشرة ليفية ، في داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها تقوب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، في داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة غنية ، وشكاه مخروط صنوبري ، وفي أسفله ثقبه مستديرة ، فيها شظيات زيرية ، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادته قبل النضج ابن أبيض غليظ حاد محرق ، وبعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأخضر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتفة بشحمتها ، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، في جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمس (١٠) — والحوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أو صدفية ، عليها قشور رقيقة ملتفة بشحمتها وهي غليظة ثخينة ، في داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والتارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أو مستطيلة ، أو مدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفي داخلها حب صغار ، على دعاص مرصعة شبه التلال ، ما بين خلالها لحمية ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفي داخلها نواة خزفية ، وفي جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) — السرور (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأندجار لا تنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .
وهك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى في الشجر والنبات :

(١) الحب : نظر الحب نراه مخلوقا في أوعية تشبه الحرايط ، وتلك الحرايط على رؤسها أمثال الأسنة لتمتع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب في حصون محصنة لتحفظ للانسان .

على الجانِب النباتية ، فلنقم معي ، ولنطف حدائق الأرض ، ولننظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف
الشجر ، والطرف الشائنة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع
طائفة الجامدين الذين لا يقصدون إلا لذات الجسم التي لها حد محدود ، ومقدار موقوت ، بل أريد أن تكون
من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكري لسكل عبد منيب » وأن ترتقي عن الطوائف التي قال فيها :
« رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن عليها نورا لقلبك ، لجسمك يتعذى بأثمارها ، وروحك
تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه في الأرض ورسمه وهندسه وزوَّقه ،
ورفع الأستار عن بعض التلويح ، وقال : يا عبادي انظروا جالي الذي احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار
علمكم به يكون نظركم لوجهي يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسرى بين أيديهم وبأييمانهم بشراكم اليوم »
ولأنور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصورة المسمقة المشروحة ،
الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللماطر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التي
اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللدهوس الاسادية .

هذه هي الصحائف الأربعة التي يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابي ، وكتاب نفوسكم كتابي ،
وكتاب الدين كتابي ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نوري على عبادي فهو كتابي ، وما كتب الفلاسفة
ولا كتب الوحي والديانات إلا مرشدات لبحركم العلمي في العالم السماوي والأرضي ، ومهدات لكتاب النفس
وكتاب الأفق ، وكل من قرأتموه في الطبيعة فانه مخزون في صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظري في الجحيم الساتية ، وفكري في العرائب الحكمية اردادت بصيريه هدي ، ووعله حكمة ،
وارداد أجنحة يطير بها إلى العلا . إن للارثكة أجنحة مهي وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ، تلك
أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليردد الناس فكرا في النبات وغيره تردد عقولهم عددا كما ارداد
الملائكة مددا ، إن انظري السات اردياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

الدحل . ولرمان ، ولسي ، والجور . والبر ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والشمش ،
والجوز ، والذئب ، والارنج ، والليمون ، والحة الحصرام ، والستق ، والسبان ، والصنوبر
والنخلة ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج .

(١) — النخلة هي ثمرة النخل

طويل شكل . مسحرج الحدة . محام الألوان ، على نواء فندردريقة ، حورية ، لينة لليس ، صلبة
المنح . وعلى هذه نواش شحبة ، تحمية ، عريها ثمر صلبة ملسا ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفي الجانب المقابل
نقرة . سمع ريم احش . وعلى رأس ثمرة من خارج قمة ، عليها شظيات متفرقة . متشدة بالثمرة ، ومادة
هدد ثمرة من صبح عصية . رابع الصبح حوية لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للتمر .

(٢) — نعدرد الرمان وثمرها

ثمر رمان : سمع ريم احش . على نواء فندردريقة ، حورية ، لينة لليس ، صلبة
المنح . وعلى هذه نواش شحبة ، تحمية ، عريها ثمر صلبة ملسا ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفي الجانب المقابل
نقرة . سمع ريم احش . وعلى رأس ثمرة من خارج قمة ، عليها شظيات متفرقة . متشدة بالثمرة ، ومادة
هدد ثمرة من صبح عصية . رابع الصبح حوية لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للتمر .

وعليها تنظيات ناتئة زبرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطية .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، في جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، في داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، في داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزانين مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منحرفة أقسامها ، مهندمة وإذا فصلت هذه القشرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، في داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، في داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة غشية ، وشكاه مخروط صنوبري ، وفي أسفله ثقبه مستديرة ، فيها تنظيات زبرية ، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادته قبل الصبح ابن أبيض غليظ حاد محرق ، وبعد الصبح طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأخضر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتصقة بشحمتها ، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاغية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، في جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادّة شحمتها قبل الصبح حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد الصبح حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمس (١٠) — والحوخ

أشكال أثمارها مخروطية ، أو صدفية ، عليها قشور رقيقة ملتصقة بشحمتها وهي غليظة ثخينة ، في داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أو مستطيلة ، أو مدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفي داخلها حبوب صغار ، على دعاص مرصعة شبه اللال ، ما بين خلاها لحمية ، طعمها حامض ، وألوان قشورها جز وخضرو صفراء ، ومادتها قبل الصبح عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — المماق (١٧) حبوب الصنوبر

ثمرها ذات حبة صغيرة ، وفي داخلها نواة حرفية ، وفي جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) — السرو — (٢١) — الاهليلج

ثمر هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهك عشرين حكمة لتقبس عليها حكما أخرى في الشجر والنبات :

(١) الحب : نظر الحب نراه مخلوقا في أوعية تشبه الحرايط ، وتلك الحرايط على رؤوسها أمثال الأسنان

لتمتع الطير أن يأكلها لتحفظ للالسان ، فكأن الحبوب في حصون محصنة لتحفظ للإنسان .

يرى الانسان سنابل القمح تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لا يدري والحكيم يعرف نعمة الله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(٢) النجور وأصناف النبات مخلوقات لا قدرة لها على الحركات كما الحيوان ، فوقفت رابضة في أماسكها ، وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ ما يناسبه .

(٣) جذور النبات تمتد في الأرض كما تمتد الأطناب ، فكما أن الحيام تمتد أطناها من كل جانب لثبت تلك الحيام فلا تسقط ولا تميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب لتمسك

وتتميمه ، ولولا ذلك لم نبت الأشجار العالية ، لاسيما في الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت النبات فامتدت عروقه إلى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الجبال وجعلوا أطباها ممتدة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا في الأشجار .

(٤) نسج الورق : انظر إلى الورقة الواحدة كيف ترى فيها ما يشبه العروق مبشورة ، ففها الغلاط الممتدة في طولها وعرضها ، ومنها لدقاق المتخذة تلك الغلاط ، المنسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً ، ولو كان البشرهم

الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة في طول الأزمان ، وبالنظر إليها يرى أنها كجسم الانسان المبني فيه العروق الغلاط ، ثم الدقاق ، ثم الشعيرية الدقيقة جداً ، ثم ان العروق العليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوتها . انظر هذا المقام موضحاً بالأشكال في سورة يس عند قوله : سبحانه الذي خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) الحجم والسوى : اعلم أن الله جعلنا مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فتراها نخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فاهم يموتون ولا يدرون حكمة غرامنا

بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فانهم يقولون : ننظر إلى ما كنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولا يخون شيئاً إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن في وضع النواة في باطن الثمرة ، والحجم في باطن العاكة ؟

انا نكدر الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكثر ما لا قيمة له في نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لا تمن لها ، وربما طحنها وجعلناها علفاً للابل ، وبعد التفكير العظيم يقولون : عجباً ! إن النواة

أفضل ألف مرة من الماس والياقوت والمرجان ، ان النواة تستحق أن تخزن في أعز خزائنا في خرائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب في أن الله خزنها ، ان النواة أصل الخلة كما أن الجبة

أصل نبات القمح ، فانه خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم الثمرة غطاء لها لأنها أصل الخلة وهكذا بقية السوى ، فاذا حافظ الله عليها وأكثر منها لذلك للحفاظ على حياتنا ، أما اذا وضعنا

الدرّة اليتيمة في حوز فليس لها منفعة إلا في التحلى بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلى ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، فجّل الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والمخاريط والصاديق المقتلة .

(٦) الصلابة في النواة : إن صلابتها ممسكة لرخاوة الثمار ولرقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما في طاهره قشرة ، فاذا سقطا في التراب أو غيره لم يفسدا سريعاً ، واذا ادحوا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظاً لما في باطنهما ،

دلبي في باطنهما كاشيء ليس الذي له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ، ولم يصلحاً لزرعهما مرة أخرى ، وكمن امرئ يأكل القمح والذرة وهو

لا يدري لم كانت هذه الصلابة ، ولو علم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل ما يحفظ أجل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أولاً بغلافها و بسفائها ثم بصلابتها ، وباطن الثمرة محفوظ أولاً بالكفرا وهو وعاء الطلع ، ثم بجرم الثمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والوسى متى وضع كل منهما في الأرض وسقى خرج منه عرق في الترى ، وغصن في الهواء ، وكما ازداد غصنا ازداد عرقاً تتقوى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه الى العصن فتكبر الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيماً عادلاً كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الأثمار : انظر الى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضرّ بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الانسان لحيايته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون سائرة للثمرة لحفظها من الحرّ والبرد ، ولكن الثمرة لا تزال في احتياج إلى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا في خلها لدخول الشمس والهواء التي لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مداخل الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحرّ والبرد ، وأدخلت ما يلزم من الهواء والحرارة . هذا هو العلم الذي يرق العقول . هنا هو الذي يقول الله فيه [ق] على ما فهمت من معناها . هذا هو الذي قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هي الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر العالية ، ألا تعجب لكتوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية وبدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تعبت بالفصون والأوراق ، ولا يدري لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ما حجه الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات في خلال الأوراق ، ويحجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، يعطى الثمرة حظها ، ويقرأ المسلم في المستقبل : « وكل شئ عنده بمقدار » . أما أكثر المساميين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن المهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لا يفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « وأوليتدبرون القرآن أم على قلوب أظفأها » فادا أقتلت القلوب لم تفهم الحكم التي سمعتها في حبّ الحصيد ، ولا في النخل الباسقات التي لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة في غلافها : منذ أيام كنت ماراً أمام [كوبرى الملك الصالح] ومأى نخلة قد انشقت [كبراه] أى غلاف طلعتها ، وانشقاقه كان من الجهة العربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها ، أما الذي في جهة الشرق فلم ينشق ، ثم انى عجزت كيف كان انشقاقه تدريجياً شيئاً فشيئاً ، فأخذت أفكر في ذلك العجب ، وأن الذي يرزالي الشمس هو الذي قوى على تحمل الجوّ ، وأن الذي لا يزال مستورا هو الذي لم يقو ، وكما اشتدّ مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد طهر ، فأما غيره فانه لا يزال بجاله لم ينشق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين الثمار وبين الأجنة : كلاهما مادام لا يقوى على الجؤيبقى في مكمنه ، فبقي قوى

حرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك في أم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المحبوة فيه كما ترى في أمة الاسلام يقرمون الأحكام الشرعية فادا قويت العقول والفظن أطلعهم الله على بدائع صغته ، فهذا الذي نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لا يذوق الحكمة ويحس بها في نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجين وقد نزل من الرحم ، وبالتمرات وقد خرجت من الأكام ، فأما من عقله لم يرل ناقصا فهو أشبه بالتمر في الأكام ، فليزمه شيوخه بالعبادات ، وليمشوه من هذه الآيات .

(١٥) حبّ الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى في داخل الرمان كأن تقدم شحما مرصوما غليظا ، الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في ألوانه ، أو كالبناى الذى وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولا جرم أن الأيدى تهجز عن ذلك التدخل الذى نظم حبا في الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم بلطائف رقيقة مسوحة أعجب نسج وألطفه ، لتحبج حبا حتى لا يلتقى بعصه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والهاية .

(١٦) غذاء الحب في الرمان : لو أن الحب كان هو الحشو للرمان لاسواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ ولذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمتد به الغذاء ، ولذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمتد الشحم بالعداء ، وهناك عروق رفاق توصل للحب غذاءه ، وإلى حبة حبة غذاءها .

(١٧) في حب الرمان أيضا الخلاوة في المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس في أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لعائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يصطرب وتحفظه ، وحط جميع ذلك في قشر غليظ واق تمام الوقاية .

(١٨) عود الرمان : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها العاية .

(١٩) الطيخ واليقطين والفقوس : عود هذه النباتات محتاج الى الماء أشد الاحتياج ، لأنه على الدوام يتحدث ماء كبيرا ، ولذلك ترى العلاحين في صواحي مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تحتد ماء كثيرا ليملا ثمرة العطين جدا ، فترى الطيخة مثلا كبيرة كالخرة العظيمة ، وربما كان في الشجرة الواحدة كثير ، وكان العود دائما مشعنا بالماء ليوصله الى ثمرة ، فكان أشبه بالقاء الرطبة ، فلن يستطيع أن يكون فأما ، لذلك انسط على الأرض ، وترك ثمرة على الأرض والأرض تحملها ، لأن هذا العود الطرى اللين لا يقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) الطيخ وما معه : لا تخلق إلا عند الحاجة إليها ، وفي الأرملة المناسبة ، فلا يلحق في الشتاء لأنه بالصيف أليق .

هذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الحيات في الدنيا ، وتمال رياض الحيات بدراسة هذه الرياض في الآخرة ، والله هو وليّ الحميد .

شذرات علمية في النبات

(١) نبات يفيد ويستفيد : قال اللورد أفبري في كتابه [محاسن الطبيعة] : هناك أنواع الفطر [بضم الفاء والطاء] والكماة التي تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة العصائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضر الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص الغذاء بالجذور ويصير عصبها في تلك النباتات ، ويسرّب في عروق الشجرة ويزيدها نماء ،

(٢) وصف العبابات في البلاد الحارة : قال اللورد المذكور : عجب عجب للغابات في المناطق الحارة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأعصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولجة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فترى شبائك من الأغصان المشتمكة المتخلفة المتعانقة ، والأرهار تقبل الأرهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقفت بين جذوع عاريات لاجال فيها ، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة في جوار السماء ، خضراء ، بهجة تسرّ الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزرجدى البهيج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى افريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأعم عيشا ، وبلادها تدرّ لبنا وعسلا ، ثم تحوّلت إلى صحارى قاحلة ، وأراض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولوأهم حصوا على غاباتهم لكانوا أشد حرسا على دولتهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه ، فيؤول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » ما يلفظ من قول إلابديه رقيب عتيد »

لقد أسلفت في هذا التفسير في مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين في عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وسأذكرها مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون في أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى إن كل امرئ يكاد ينطق بما استكن في نفسه ، وهيئة الاسان وسيماه تدل على ما في نفسه من الحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون في المقدمة

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتا المصرية قد عرفت أن خطوط ابهام اليد في المرء لا تشبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لا تختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهي [الفونوغراف] فهو كصدى الصوت بحكي ما قيل بلاخل وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات في اسطوانة ويديرونها فتنتق بما نطق به الانسان وينتكر ذلك سين وسين ، قد زاد الانسان على ذلك ، فترى علماء النفس في بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملحظه كما تقدم موصحا في ﴿سورة النساء﴾ أن بعض النفوس اذا غابت بدويم مغاطيسى ، ثم أعطى لها أثر اسان أو حيوان أو جاد أو نحو أخذت تلك النفس

تقص ماجرى لصاحب الأثر ، حتى ان أحد هؤلاء القادرين على ذلك ، المتعودين عليه اذا دخل في حجرة ذكر كل ماصرها من خير وشر ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم (٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرروا هذه الحقائق ، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد [أوليفر لودج] قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية (٥) أفلمت ترى معي أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الاسلام ، والافكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمن والآخر على الشمال ، ويقول : ان الانسان له قرين من الملائكة وقرين من الجن ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ماهو أعجب ! أثبت أن الجاد الذي يحيط بنا يرسم فيه مايجول بخواطرها فضلا عما نعمل أو تتكلم به حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير : « سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر ويهدوا العلم بمسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا » .

ياعجب كل العجب ! فإذا كان الجاد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لا تعرف ذاك الأرواح المجردة من المادة ؟ المادة أصبحت مخبرنا لعالمنا فكيف بالأرواح المجردة التي أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الاسلام لا يظهر إلا في المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأول من العلم إلا القشور ، اللهم انك أزلت الاسلام ، وهأنت ذا سبحانه تفهمنا قولك : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فدين الاسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق ، وما نحن فيه الآن ظهوره في الأنفس .

فز يعلم تكن حيا به أبدا * الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى في سر [الم] في قوله تعالى : « أعلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

اللطيفة الثانية في أسرار قوله تعالى : « أعلم ينظروا الى السماء فوقهم » الخ . وفي هذه اللطيفة مبحثان (المبحث الأول) في عجائب العين التي اختصت بنظر السماء (المبحث الثاني) في عجب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

(١) هه اللطائف م يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع

[المؤلف]

اللطفة الأولى

في سرّ [ال م] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

ما كتبت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزرورع والشجر والجبل جعلك مغرماً بالكلام فيها حتى ان أكثر هذا التفسير راجع الى هذه المعاني ، فهلا أقلت من هذه المعاني في نحو هذه الآيات ؟ فقلت يا صاح : قد نعلمت ولم تستطع صبراً على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتي في هذه الليلة إحدى ليالي شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهريديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى [ال م] في قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : وما هذه في هذا المقام ؟ فقلت يا صاح : ان هذه بينها وبين [ال م] في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ صلة . فقال : وأى صلة بين البقرة وسورة ق وما فيها من الآيات ؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، ان هـا سرّاً كان محبوباً والله أبرزه اليوم في هذا التفسير ، وحرام على أن أكتف عن الأمم الاسلامية ما وقع في صدرى في هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : انك تصف أمراً عظيماً فهاهو ؟ قلت [ال م] من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الايضاح ؟ فقلت : ابتداء الله القرآن بالفاتحة ، وابتداء الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، وبراعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهي الفاتحة التي هي أم الكتاب إلا أن يندى في تفصيل ذلك الجملة ، فكان الابتداء برمز هو [ال م] وهي من الحروف التي في أوّل السور ، وفي تقدم الكلام عليها في كل سورة على حدتها ، وأعمّ الكلام فيها ما جاء في أول ﴿ سورة آل عمران ﴾ فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدمين الثلاثة ، وهي ما يذكره أشبال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأنتال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها ، وانتظام أوصافها [راجعه هناك] ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا الى آخر ما هالك ، ومثل ما تبتدى لنا في هذا الزمان من المجائب والبدائع ، مثل أن [ال م] في سورة ﴿ آل عمران ﴾ تذكر مسامى زماننا بما قصه الله من حال اليهود في زمن النبوّة ، وأنهم باتسكاهم على شفاععة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أو تحديد أيامه في جهنم قد أخلوا بشرائط الذين قتلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على ما يملكون ، فاذا عرف المسلمون أن [ال م] في أول آل عمران قد أشارت بطرف خفي الى هذه المعاني ، ورأوا أن ذلك ايقاظ من الله لهم في زماننا هذا ، يدعوهم ذلك الى الجّد والتشمير في العمل وأن من ظن أن الشفاععة التي أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود في زمن النبوّة فهو مغرور ، وأن الأمة الاسلامية التي تكون هذه حالها لا محالة آيلة إلى الاصمحلل والزوال . أقول : اذا عرف المسلمون ذلك جدّوا حالاً في العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلاً الآن ، وهذه المعاني هي التي ذكرتها في سورة ﴿ آل عمران ﴾ هي الموافقة لقوله تعالى : « أهلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولا جرم أن [ال م] من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيسها ناضفة بهذه المعاني ، وعذد المعاني سائفة ، وفيها من البلاغة مالا حد له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقلت صاحبي : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن في سورة [ق] و [ال م] فيها في وسطها لا في أولها . قلت : أيها الصديق لا تهجل ، ان المفتاح الذي جاء بعد الفاتحة قد فتح به أول خزان علوم الصبر على مكره القتال . وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات ، حتى يقدر الجدى على المصبرة في الحرب ، فهما صبران : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لا يتمّ نصر إلاهما ، فأول في آية : « أم ترالى الذين خرخوا من

ديارهم وهم أولف » والثاني في آية : « ألم تر إلى الملا من بني اسرائيل من بعد موسى » فقد جاء في هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة في القتال ، ومن شرب كثيرا كثر راجعا مهزوما ، فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا في الحرب على الكيبر من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان فتحنا بهذا المفتاح في ﴿سورة البقرة﴾ : خزنة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وابعثنا مع العلم يكون كمال الانسان ، والخزنة الثالثة جاء مفتاحها [ا ل م] في سورة ﴿آل عمران﴾ وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المنقضة للنشاط والاقدام والمثابرة والا كان هذا الفهم مجتثا للدين من أساسه ، وكمن خزائن في القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للدين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أفسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكتهم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فههنا في هاتين الآيتين جاء ذكر [ا ل م] وجعل ما بعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها في قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فاذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل في ديار الاسلام .

ياسبحان الله ، ويعجبنا ياربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم في أهبة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الاسلامية شديدة الاسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصداهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكتهم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولاجرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم اللتين حلّ المسلمون بديارهم وسكنوها وأوها فلم يعتبروا خلّ بهم ما حلّ بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم [اقرأ هذا المقام في سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ، ففي غصون ذلك ترى هذه الجوانب من تاريخ الاسلام] فانك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الاسلوب في النظام واحدا في بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى في أول ﴿سورة البقرة﴾ الذى ذكره الله بعد العاتحة .

هذه هى الخزنة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ا ل م] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يعتجها هذا المفتاح ، لأنك أيها الدكىّ يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولندكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين لى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتح به خزائن العلوم فى سور كثيرة جيء به ما لفتح العلوم . فقال : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أول سؤالى . فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار [ا ل م] التى جاءت مفتاحها فى أوائل السور ، وهى هنا فتحت تلك العلوم .

فقال : إن الخامس هذه المدانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ وأليس هذا بعينه ، سيما بالرى ؟ ثم ان تكرر الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم تلك والضيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الاتقان

ذكر شروط المفسر وحصرها في ١٥ علما وهي :

- (١) اللغة .
- (٢) والنحو .
- (٣) والصرف .
- (٤) والاشتقاق كاشتقاق [المسيح] هو من السياحة ، أو من المسح ؛ والمعنى يختلف تبعا للاشتقاق
- (٥) والمعاني .
- (٦) والبيان .
- (٧) والبديع .
- (٨) وعلم القراءات .
- (٩) وأصول الدين .
- (١٠) وأصول الفقه .
- (١١) وأسباب النزول والقصص .
- (١٢) والناسخ والمنسوخ .
- (١٣) والفقه .
- (١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .
- (١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال محمد بن قاسم : فهذه هي العلوم التي أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : ان هذه المعاني لم يسبقني بها أحد ، وانى فسرت بالرأى ، وأن العلوم الكونية من العلوم التي تشتت في المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم » فمن أصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذي ليس كمثل شيء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحي ، وفعله هي هذه العجائب في السموات والأرض ، نراه أبدع المجرات والسدم والشموس والأرضين ، فأولا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرات والسدم ، ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزرع ، وعلى هذه ثمر الأزهار والثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر لما قبله ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرات ، والمجرات أزهار الأثير ، والأثير صنع الله بلامادة . هذا كله في عوالم المادة التي منها الانسان الذي هو من زهر الأرض ، فهذا الانسان أيضا له زهر وزهره هي الحكم التي تلقى على قلبه ، وقد اقتص به دون سواه من العوالم ، ان عوالم الحيوان كذوات الفترات من الطير والسماك ، وذوات الأربع ، وكالحشرات ، كل هذه زهران في الأرض ولكن الانسان أرقى ، ان كل حيوان فيها يعيش بغير رتبة ، والعريضة منحة من الله لا نصب في تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرقى من ذلك العالم يحس أن يتعلم الاستقلال في عمله ورأيه . وذلك بوقوعه بين متضادين ، وهما الخير والشر ، ويربى ملكته ويحكم بعقله ولا يتكلم على العريضة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الانسان ، فهو يربى ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على عباد المنوال : بس وجد في الاختيار والأعمال ، واصدار أحكام فيما تشابه من الامور خيرا وشرها . وهي كمثل نبت العنقل عرجت إلى ملا أعلى والابقيت مع العوالم المدحلة ، فهذه العقول الانسانية لها زهر أيضا وهي الحكم التي يلقها الله على

القلوب وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء في صفحة ١٨١ في نفس كتاب [الاتقان] بعدما ذكرته أنت من شروط المفسر مانصه : « علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » واليه الإشارة بحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قال ابن أبي الدنيا : « وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحرلا ساحل له » . قال : « فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهى عنه » . قال : « والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم » انتهى .

فانظر الى قوله « علوم القرآن وما يستنبط منه بحرلا ساحل له » . أيها الأخ : نحن جننا في زمان فيه وجدنا أرائنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوة لم تدع قولنا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أرائنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلانصب اليوم في تحصيلها ، إنما النصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا : ان علوم القرآن وما يستنبط منه بحرلا ساحل له .

فهذا الذي نقوله نحن من أن [ا ل م] في أول القرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزان وخزائن ومنها خزائن العلوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها ، فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث انها معينة على تلك الموهبة التي ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرجح البحرين يلتقيان » انهما على وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعني الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الاسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علومها وعلومها ، وأقينا هذا القرآن منسيا محجولا ، مقروءا لفظا ، متروكا معنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الامور على غاربها ، فلم نجد بدنا من ايقاظها وبعث همم أبنائها ، ونحن اذا قلنا ان هذه الحروف التي في أول السورة قد أشارت الى هذه المعاني التي أسلفناها فقد قلنا ونحن مطمئنون لما نقول ، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا ان الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعاني على هذا النوال لم يكن موجبا بدعة ، ولأصرا منافيا للدين ، بل هو من واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف في أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم « الله أعلم بمراده » مع أن الله قال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : ما فتح عليهم محسب ما يفتح زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح هذه العلوم التي في زماننا ولغيرها والا فلماذا نرى « أولم يروا » و « ألم تراخ » كلها تحس على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا العرجة ، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتفريع ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها ليعلموا بها في حياتهم ، أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدمنا : « أفلم يهد لهم كم هلكنا قلوبهم من القرون عشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهي » وهو نفس فيه تعالى أيضا : « رسكتم في مساكن الذين صلوا أئمتهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المسلمين والدرس والرؤد وسما جمع الأمم التي سكتا بلادها كما ندرس جميع العلوم والاروع ، وأولست هذه على لوه أن جلد المسلمين جهلا فتحاصروا هزا بين الأمم ، وأدلاء ، وأى ذلك أشد من هذا الدليل ! معاش : يسير . ويدرس آما العرجة ، ونحس لعيس ولا ندرس أنسنا ، ولا ندرس آباءنا إلا قايلا فضلا عن

الأم التي سكا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه ، ان ما كتبت في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أبناء ملوك الاسلام السابقين ، واعجب كيف استفعوا برموز الحروف المذكورة . وهالك ماجاء في الجزء الثالث من كتاب [تاريخ المتمدن الاسلامي] صفحة ١٢ وما بعدها وهذا نصه :

« على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لو ذكروا لرجل حرفا أو كلمة انقبه السامع للآية كلها ، ونشبرا ما كانوا يرمضون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير ، وما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعد ، قال في جلته : [لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الصيلة إلى غزنة لفعلت] فبعث إليه الخليفة كتابا محتوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فخار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، فسكر في ذلك وقال : عندي شرحه فقال : اذكروا لك ما تريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالقيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تركيب فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فانزع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والدم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب (١) » اه

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسي برسم الفيل مع ذكر [ال م] وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوي من هذا المعنى ، وترقب على ذلك حقن السماء ، وحفظ البلاد ، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، ولول السمار . ولقد تقدم مختصر هذا في سورة البقرة في الطبعة الثانية . فهذا كله يتم بمهونة [ال م] والسر في ذلك أن هذا الانسان الخارق في المادة لاسعادة له إلا بالاسعى ولذلك تجده لا يجب إلا مانع عنه ، والمبدول مبتدل ، والعريز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الانسان وهذا شأنه ، ومعاني الرموز محيرة مشتبهة ، في وصل الانسان إلى حياها سرع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ما حصلناه نصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا في الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدريبا على تحمل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هو الذي يعرفنا ماراولة فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوي : إن نظم صرته وخيم كما حل بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد [ال م] فهذه حيرت العقول فلما اهندي الى المعنى عملت السب ، وادا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا يأمنون قرونا وقروبا وهم يقولون « ندأعا نراده » أو ياتهم من معاني حريصة عمية حتى ادأاه وعد ربك بالفتوح على الأمم الاسلامية بررت هذه اسان ! الدنيا رتبي ، كتبت لآياتها تداب رمها ، وهه صرت الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الدارين ، وإن كنت أدركت ذلك امر جريدها سر كلتي . وليس مدار بين المسلمين إلا محرمته ومحرمة تدكده ، وادأاه آية بحر ، وكما تعطون لقرم هي الرضا في محاطهم العادية . كما تعطون له عيونهم حية وعيونهم رتبي .

ان [ا ل م] في سورة ق مفتاح فتحت به خزائن الملك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان الفتح لاغير ، لأن هذا الزمان هو الزمان الذي فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون في حاجة اليها كما أن المسلمين في بغداد في حاجة الى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوي بما انتفع به المسلمون ، فحقت السماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه المعاني المستخرجات في هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الاشكال ، وحلّ العقال ، وارتقى الاسلام .

قلنا ان قول الله كفعله ، وللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هي هذه الحروف في أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، في هذه الحروف رمز ثمرات هي علوم ومعارف قد أظلمت أوامها ، وأقبل البتها ، وحان حينها ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذه الحروف دلالات على عاوم هي سعادات أم الاسلام في هذه الأيام وفي مستقبل زمان ، إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها في هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى الغلا ، إن أمما وأمما في زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرونه ، ويأتون بعالم وحكم لم يحن حينها ، وأيس هذا الخيل يستعد لها ، ولعلمنق نبأه بعد حين ، فالجد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحي قال : لقد شفيت نفسي ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى في سر [ا ل م] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت في كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة لإداتق فالجد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

في أسرار قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج أي في المبدع الأول من مبدعيتها ، وهو مبدع عجائب العين التي اختصت بظن السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر في ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التي كنت ألاحظها في الأعوام السابقة في مثل هذه الأيام ، وهي اتريا والديبران والهنقة والهحه وما يشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها في ﴿ سورة الصافات ﴾ في أولها . وتقدم أيضا قبل ذلك في سورة أخرى ، ولكن الذي توحه له نظرى في تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرجحات التي أعم الله بها على عيني حتى نظرت هذه السموات ، أخذتني العجب كل ما أخذ ، وأخذت أنزل : ياليت شعرى سماء واسعة سعة لاندري مداها ، ها هم أولاء نوادم في الأرض يبحثون ، فيها هم أولاء لم يجهنوا السموات نراية ، وقد وصات نجوها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد ما هس ودطيم ، هذه جهنم تجلت للمسكرين في الدنيا ، وإنما الذي زاد دهشتى أن لى عيين تطران هذه السماء ، والذين صبية عارة عن كرة ندر الجوزة رهي مدججة فيها صور وعجائب لاحد لها ، و باجناعها أمكنى النظر ، عين صهيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عيني ؟ وما هي المناسبة بين عيني وبين الشمس والقمر والكواكب والأصوار في أرض ؟ أت عجة جدا أيتها العين ، اترك الكلام على السموات الآن ، وانشرح في هذه العجائب حتى نرى بذلك بعض ما أعطينا من الرجحات في الأرض ونحن ذائعون جاهلون ، وضعه الله في قلوبنا من العجائب والبهائم ، كل ذلك لمعرفة الرحمة في أول هذه سورة حتى جاء ما حلص على أسرار هذه السرات .

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما تقدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الإعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : انك الآن تريد البحث في العين ، والبحث في السموات حتى تفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث في عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ما تقدم في أول سورة ﴿ آل عمران ﴾ ومع ما تقدم في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ عند ذكر السمع والبصر هناك ، ولقد شرحت العين في ﴿ سورة آل عمران ﴾ شرحا بديعا جيلا لم أر له نظرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ واسكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبدت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسر الناظرين ، فأما السموات فانك شرحتها في البقرة عند ذكر السماء في أول السورة وفي : « إن في خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفي أول ﴿ آل عمران ﴾ وفي ﴿ سورة الأنعام ﴾ في أولها ، وفي آية إبراهيم : « واذ قال إبراهيم لأبيه آزر » الخ وفي آية : « ان الله فائق الحب والنوى » وفي سور أخرى مثل ﴿ سورة بونس ﴾ في أولها عند ذكر السماء ، وفي أواخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك بيدك » فهناك تبنت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة ، وهي صور واضحة عجيبة وتبعها تلك صورة الهرم ومجائبه المدهشة ، وكيف كان الهرم نسبة عجيبة الى الشمس وبعدها عن مدار الأرض حولها في السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكابيل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا في آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأول الصافات وهكذا فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم أفليس يكون الكلام هنا تكررًا ؟ فقلت : أنا أجد الله إذ وقفتي أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لأرل حيا بقرءون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكرونني بما نسيت .

ومما يشجئني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجذك قد استوعبت أكثر ما كتبتته وهو حاضر في ذهنك ، ومن استوعب ماضى قد استعداها تاما لما ألقيه الآن ، لأنى سأذكر في العين ما لم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ما تقدم فهو حدير أن يذم ما أكتبه الآن وهكذا ماضى كتبه في السموات .
الله أكبر : إن حياتنا كلها جبال ولكن يظهرلى أنا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يفرضوا أعينهم ، لأنهم لو نظروا جبال الفصر لزال عنهم لئناء ولأحسوا بفرح كأهل الجنة في الجنة ، أنا الآن في الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عز وجل يريد لشدة رحمة بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجة ، ولأعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والظفر في هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وما هذه الحياة ؟ وما هذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحب فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به غاية وعظما لفرح بهذه العناية فرحا لا حد له ، ريصح الحب غذاء له ، وسعادة لاحد لها ، ونحن الآن في الأرض عبي عن اجسادنا وعقولنا . لا نذكر في خلتها والأعمار قصيرة ، فكيف تمر هذه الأعمار ولا نتفتح هذا الكتاب لدى نفيس بين دفتيه ؟ وهذه الدنيا ، وقرب شيء إلينا أجسامنا ومن عجائب أجسامنا ميوننا التي تظار هذه السماء ، وحتى عرفنا العناية أحبا من ذنب أعماله . وصارت دار الدنيا سهولة .

انى أمها لذكرى ليلة الجنة الماء يطرب رب السعد أحد دة الله سبحانه وتعالى . وما كادت الشهس تطلع حتى فتمحت كمنب « بهم نجيح » في الحزن له الله ، رأيت فيه ما أتى :

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ما ترجمته : « ما أسهل على الانسان أن يستعمل آلة وهو يجعل تركيبها ، ولا يعلم أى شيء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح في كل سنة يأخذون الصور في الجبل والسهل ، وهم لا يعلمون أى شيء عن عجائب تلك الآلة التي بها يأخذون تلك الصور ، وبأى وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من احضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم في جميع الساعات التي هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لا يعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة النافعة للناظرين ، ولكن اذا أخذ الانسان يبحث في عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

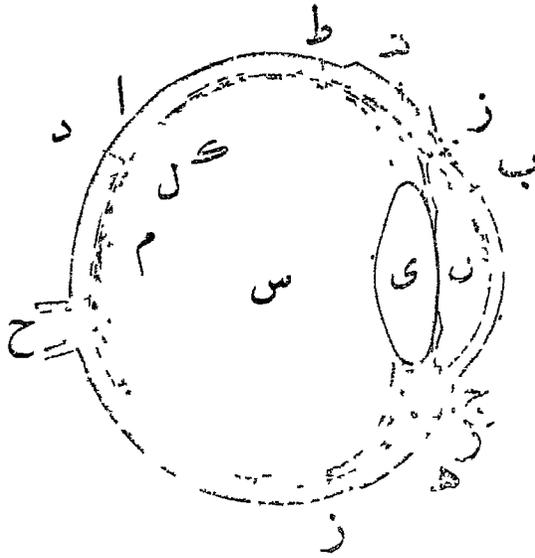
- (١) كيف ركبت طبقات العين ؟ .
 - (٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منمنمة عجيبة .
 - (٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .
- وهنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : اذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة [بالتلسكوب] فاننا لا بد أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس [التلسكوب] هكذا فلننفع في العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن تفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فاننا لاجرم نصل تماما إلى ما توجهت نفوسنا إلى فهمه وهو : كيف تركيبت العين وما منفعتها ؟
- ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بكرة أونجحة أرذكر يهيا كافية لدراسة هذا الموضوع ، فادا أرسلت إلى [القصاب] الحرار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لي ، فتي حصلت على العين فأولا أرسل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها واذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها جبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الجبل يمتد في داخل العين ، وقد كان قبل أن يتقطع قويا متينا موصلا العين بالمخ ، اننا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن نظرفى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة :

- (١) فلننظر أولا الجزء الملقم الشفاف الكروي البارز المنجب ألا وهو [القرنية] .
- (٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهي التي بها تحفظ كرة العين وتثبت فهي لها حفاظ يصونها .
- (٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الانسان حلقة ذات لون وما هو هذه إذن ؟ هي القرنية أو العنابية قد نسبت لقرص قرح من حيث ألوانه ، ولانسبة من حيث لونها كذلك .
- (٤) وفي وسط هذه القرنية ترى [البؤبؤ] وهو اسن اسين ، وهي فتحة يدخل منها الضوء فيل إلى اللورية وتوجه إلى الشبكية كما سترا نصلنا .
- (٥) هيا نطلع ان لنضع دية لثمتن ما يدخل اسين ، لأل- إذن آلة حادة ونجس في عين البقرة مثلا فتدق ، ولا كما السنية تمنع من ارا الحالا بل تأتي يسونه نالينية [كورس]
- (٦) هيا اننا ندرس العين من غير قطعها بأنا نظرفى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية

الأعضاء في العين ، وما هو إذن ؟ هو العدسية المسماة بالوربية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد وهي حالية من الشوائب مثلها ، وهذه البوربية شفافة عند الصغار والشبان ، أما الرجل المسن فإنها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خلافاً في نظر الكبير لاجتياح تفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادة الزجاجية التي تقع تحت البوربية التي تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضاء .

ووصف الشبكية ومن ورأها المشيمية التي تليها الصلبة التي تقدم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام في هذا المقام ، لأنني أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم في هذا التفسير ، فلنجمل القول أولاً برسم هذه الصورة التي رسمها المؤلف المسمى [ويليم أكرويد] وهي هذه (انظر شكل ١)



(شكل ١ - قطعة من العين الانسانية)

- | | |
|--|--|
| (١) - (١) الصلبة . | (٥) - (٥) محيط لشبكية . |
| (٢) - (ب) القرنية . | (١٠) - (ي) الجليدية وتسمى البوربية . |
| (٣) - (ج) الملتحمة . | (١١) - (ك) المشيمية . |
| (٤) - (د) غطاء المشيمية . | (١٢) - (ل) الشبكية . |
| (٥) - (هـ) عضلات هدية شعرية . | (١٣) - (م) النخلة الصفراء في الشبكية . |
| (٦) - (و) ابتداء الأهداب الشعرية . | (١٤) - (ن) الرطوبة البيضاء . |
| (٧) - (ز) القرنية المسماة أيضا عدسية . | (١٥) - (ح) الرطوبة الزجاجية . |
| (٨) - (ح) مبدأ العصب البصري . | |

فلما سمع صاحبي ذلك وطن في تدانيتها من بقل واناره احمره . من شدة حبه وانارة لان اولاً لم نصل للقصود وهرا اتصال هذه البيوت بالعين ، وكما ان العين من العين ، ان رسم صورة العين التي تقدمت في سورة المؤمنين هم فان قاردهم بمررتك رسمت ، لا يمرى بهم اختناق حق

الفهم ، ثالثاً : أنك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر أو النعم ، ولا جرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثراً من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للثقلين قبولا عند سامعهم ، ولا للؤلئين عند قراء كتبهم إلا إذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأى إيقان لكم أكثر من اطلاعكم بأنفسكم كما قال تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه هي الشهادة بالحق التي ذكرها الله فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » وأى شهادة بالحق أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها ، لاسيما أن المؤلف الذي ترجمت أنت كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق أمامها معبدة ، مما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والنعم للطلابين وللؤلئين . فقلت أيها الدكتور : أما قولك اننا لم نصل للقصود فهو حق وماذا كرته الآن إنما هو مقدمة ، وهاك صورة العين المرسومة في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فيما تقدم في الجزء الحادى عشر من التفسير (انظر شكل ٢)



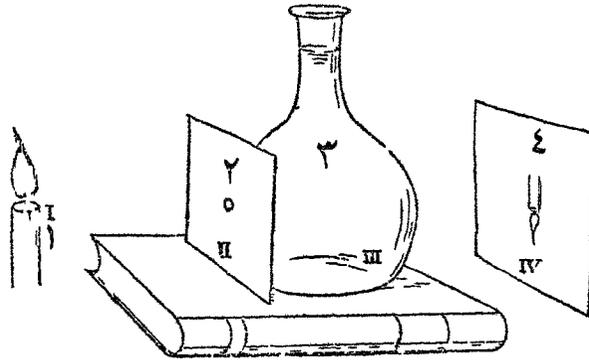
(شكل ٢)

وأما ما ذكرت من أنه يحسن في أن أنظر بعينيّ بعدا قد تمّ هذا اليوم صباحا ، وذلك أننى لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة العاشرة ، وناقت نفسي للفرقة المتصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفي هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى [السلخانة الأميرية] وهي قرية من نزلنا ، وأخذت منها عبي نقرة ، وتوجهت معها إلى المسقشي الرمدي بالخيزه ، وقابلني أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم نشرح العين ، إذ هم أدري بذلك ، فشرحوها لي ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أرائني مديرا مسقشي العين الصناعية وهي كبيرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقروحة والدوروية ، وقيه انطقت ، ورجعت وقت الظهر ، وها أنا ذا الآن أكتب ما أقيمت به بعد المظالعة . فتلى : الحمة ، إذ ذات ذرة رها أنا الآن حالس بمك وأقررت أن كثيرا من الشبان في هذا الزمان وفي المستقبل سيبحثون بأهمل من كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه ملكة راسخة في بلاد الاسلام فيبحثون كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم الأدوات لا ثيب وللشبان . فقلت : أ ، بذلك من ابوقدين .

جمال العين وبعثتها ، وعجائب اتقانها

وسببها من الآلات المصرية وما فيها

ثم دنت إليها الأبحر الحى . هـ - س - راء راء من مواد الآلات المصرية في العين ، وقد عرفنا نظامها رسم مجها ، وسببها من الحمة . نية الردوية ، البيضاء ، البارية ، لزحجية ، الشكية ، وهذه الآلات ، من صنع الرءى ، احتيتي لإلا ، أن مثل نما يسا ندونه ، إن العلم ان لم يتصل بما يعرفه من سكين رءى رءى . وهذا الآلات المصرية مثلا ما أتى (انظر شكل ٣) في الصفحة التالية



(شكل ٣ - تجربة تبيين منفعة أجزاء معلومة من العين)

(١) المصاح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاج المائبة نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاج وأماها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فإنه لا يكون واضح الصورة (وهي مقلوبة طبعاً) بل هي تكون أقرب إلى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لا بد منها لإصلاح تلك الصورة

وإذا تأملت هذه الآلات ألفت نمرة (٢) تمثل الترحية ونمرة (٣) وهي الزجاج المائبة تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) التابل للصورة يمثل الشبكية ، وعلى هذا طهرت هاتين قيمتين الترحية لأنها في علم البصر لها منفعة عظيمة في بعض الصور إذ هي المساعدة لتتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ السكي عرفت أن أهم الأدوات المصرية في أعيننا إنما هي الترحية والبلورية والشبكية التي مثلتها (١) اللوحة البيضاء المقوية (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التي لا ثقب فيها ، هذه أهم تلك الأدوات .

الكلام على المشورات البلورية القائمة مقام الزجاج المملوء ماء

إنما قدمنا المال المذكور لسهواته ، ولأنه في متناول الجميع ، ذلك أن الزجاج يعرفها العام والخاص ، وهي تمثل لما البلورية التي في أعيننا والتي رأيتموها أمس حين تشرع عين القرة في مستشفى الخيرة ، ولكن العلم يعوره ما هراق في من تلك الزجاج الألهي أجسام رجاجية مصلعة يسمى كل منها بالمشور (انظر شكل ٤)



(شكل ٤)

(١) قطعة من بلورين محمرتين .

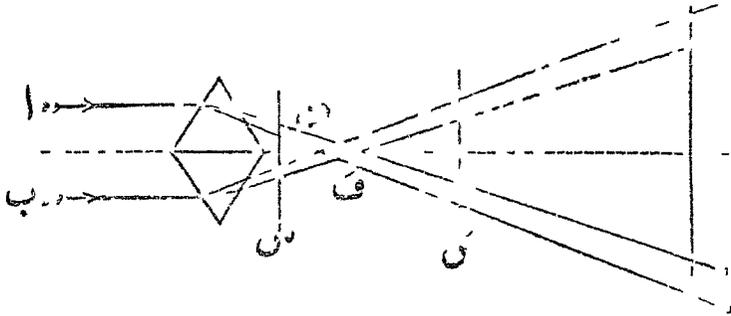
(ب) جزء من مشورين وضعت قاعدتهما على سطح مستوي .

لقد بسطنا الكلام على ترحية وأشباهها في كتابنا "علم العين" الذي ذكرنا فيه صورة التي مررت في زحاجة النايمة . فادعك الآن من مستمرا صراخنا من صراخنا الذي رسمناه الفهم

بها (ا) وهي البلورية المحدبة ، وبيانه أن البلورية في العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلأنا ضمنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه ما في صورة (ا) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التي فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولا جرم أن النور وهو ماز بالضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أيضا ، وهكذا يفعل الضوء في صورة (ا) لأنها تماثل صورة (ب) فههنا تشابهت البلورية والمنشور في توحيد أجزاء الضوء اذا مرّت منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة اذا مرّ في المنشور

إنك أيها الذكي تعرف من دراسة العلوم ، أوما تقدم في كتابنا هذا أن الضوء اذا مرّ في منشور فانه يحال إلى أصوله السبعة وهي : الأحمر ، والبرتقالي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلي ، والبنفسجي . ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، ولالأحمر ميل أقل كثيرا (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ - ميل الضوء)

انظر إلى نقطتي (ا) و (ب) المصيّتين المشبهتين قلمي رصاص رقيقين في (شكل ٥) وقد مرّ هذا الضوء في المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل في سير الضوء أيها الاخ فانك ترى الأشعة الزرقاء أسرع فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فلها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (و) .
وإذا نحن وضعنا بلورتين معا كما وصفا فانا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء في المنشورين الموصوفة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء في وسط الحقل الضوئي وفي أطرافه

وهيما دلاحنا أن الضوء الجري في هذين المنشورين المتلاصقين منصمة أجزاءه ، متحدة في وسطه ، فيكون لونا أيضا ، فأما ان الذين فان الأمر نحاب ذلك على خط مستقيم ، كيف لا ونحن نرى النور عند حرف (س) اني تدر المؤرة الصورية في اجتمع فيها الضوء يميل الى الحجر والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد ملاحظة المؤرة الصورية يمين في البرقة : لا حجب (س) .

وهي صفة سرورين شريين انهم يزداد كبرها ما يقرب منهم البلورية التي في أعيننا ، والتي وحدها ثمة أسئلة ، ورتبه تدرية كما تقدم ، وانها بلورتان المتحدتان معا تشبهان المنورين المتساين كما تقدم ، وتدرية في الميراث وفي له رتين الموصوفتين بماد كرى يشبه تمام المشابهة له في ذلك .

فائدة القرزية

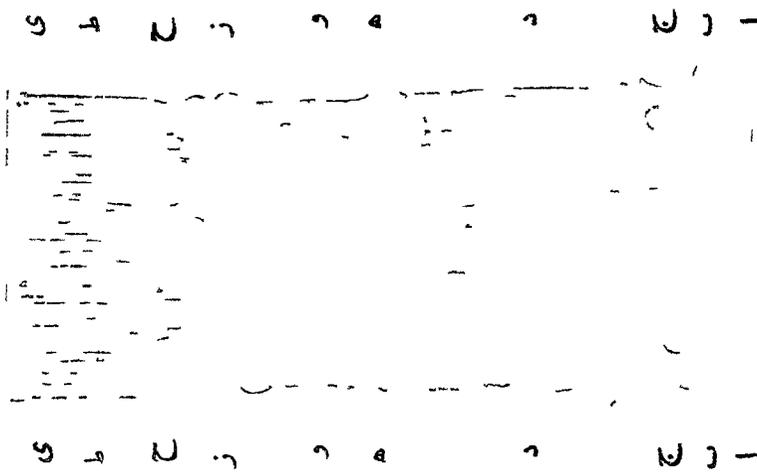
ها أنت ذا أيها الأخ النكي عرفت أن الضوء في وسط الحقل الصوتي أبيض ، وفي حافة هذا الحقل يكون أزرق أو أحمر برتقاليا ، ولا جرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقيه في الآلة البصرية [التلسكوب] فنتجت هذا العائق ، ولقد حقق كثير من العلماء بمباحثهم أن القرزية التي في أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التي تشبه الحلقة ، فلها الفضل في حفظ الصورة الصوتية من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقه والحمره فيما تقدم عند مرورها بالبوريه المسماة بالجليديه أيضا والعدسيه ، إذن ظهر أن للقرزية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب في أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحه التي تقبل الصورة ، وثانيتها أنها اذا مرّ الضوء من منشورين أو بلورتين فإنها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القرزية والبلورية والشبكية

فهنا استبان أن وظيفة القرزية أن تحفظ الصورة واضحة لا تداخل فيها ، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ما وراءها فترسم على الشبكية ، ووظيفة الشبكية أنها تصورها إلى الدماغ فيها الانسان والحيوان ، ولقد فصلنا القول في القرزية والبلورية فلفظ الكلام على الشبكية فنقول :

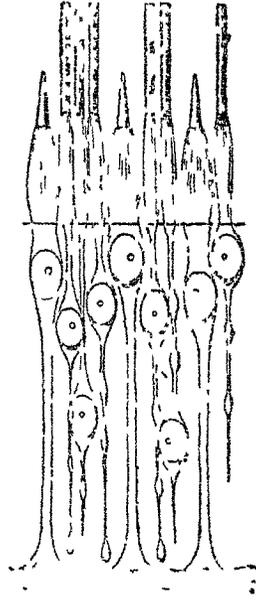
إن الشبكية عضو شفاف يختلف في نضجه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصه الواحدة وهو مبطن للسطح الداخلى من محيط كرة العين كما رأيت فيا تقدم ، وكما رأيت أما في العين الحقيقية ، وفي صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أى بقعة رقيقة من بقع الشبكية ماعدا مركزها الذى يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصرى كلاهما اذا نظر بالمكروسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذى تراه في هذه الصورة (انظر شكل ٦)



(شكل ٦ - شبكية العين الاساسية)

فأنت ترى أن هذا الجسم من حرف (ب) الى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وما وراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذي يشبه بعضه [العود] وبعضه يشبه [القصب] وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ - العيدان والقصب بهيئة مكبرة ، فهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان)

- (أ) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادة الزجاجية .
- (ب) امتداد ألياف العصب البصرى
- (ج) ذرات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها
- (د) طبقات ذرية وألياف عصبية
- (هـ) ذرات مجتمعات تشبه الحب والنوى
- (و) طبقات متدخلة وألياف عصبية حوامل ما يشبه الحب في الداخل
- (ز) ههنا ما يشبه الحب في الطبقات الخارجة
- (ح) سطح جعل حدًا لما تحته ومقما يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهى النسيج المحكم تحته
- (ط) العصبات والقصبات
- (ي) سطح وضع حدًا للشبكية فوفه .

إن العصب البصرى وهو داخل فى كرة العين تتفرع منه أغشية فى جميع الجهات به تتكون الطبقة الأمامية عند حرف (ب) فى شكل ه المشتمل على الشبكية وهى بلارب مرتبطة بالعصى والقصب من خلف . هذا مانعنى أن أيتها الصديقين فى هذا المقام والجدسة ، ب العالمين

هنالك من صديقى العالم : ما هذه العجائب والمدائع ؟ أهداكمه لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجائب ! إنك قد فتحت لى باب الكلام مهذه المباحث ، فاسمع لى بذلك . فقلت : سل ما تشاء . فقلت : هر الجزء لى يتأثر من الضوء من الشبكية هر لى يتأثر به فينتقله إلى المخ . فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج لى لإصلاح ، إن العصى والقصبات لى رمان فما تقدم هن القائمت بأمر الاحساس ، ولا حرم

أنهم في آحر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهنّ الاحساس بالضوء بعد أن مرّ في تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية في طريق الدور . فقال : لقد ذكرت في هذا الموضوع ما كتبه أنت في ﴿ سورة آل عمران ﴾ إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما ، وذكرت للعين نحو ١٤ حكمة ، وللأذن نحو ٢٦ حكمة ، ونقلت عن [اللورد أفبري] في كتابه [مسرات الحياة] ما يأتي :

« إن في الجسم الانساني أكثر من مائتي عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعافت حركاتنا التي نأتيها كل يوم [يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولاً عن آباءنا حكماء الاسلام] . »

ثم قال : « وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهويين هذه العضلات ينبض في السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولولا أنما لنا في أدرات الحس كالعين مثلاً بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهي في الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التي لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيق الدماغ نحو ستائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الطاهرة ، وكل دقيقة تتكوّن من ملايين الجواهر . » وقد قال قبل ذلك : « لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسماً » انتهى

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطية والثلاثون مليوناً من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربّي ، فالأشكال المخروطية يراد بها هنا القصات ، والأشكال الاسطوانية هي المبرعنا هنا بالعصى . فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل احساسنا . قلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صورته إلى نفوسنا التي ليست من المادة في شيء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا ، وهذه الآلات هي الاسطوانات والمخاريط التي تعدّ بعشرات الملايين ، نحن هنا في مقام الجبال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الانساني يعيسون ويموتون ولاهم يذكرون ، وكمن من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التي يقرؤها ولاذة لها في نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عزّ وجل لم يرفع أمة بعد وضعها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون في الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذي يتضائل في جنبه كل جمال ، فهو لاء يؤثر في أهمهم لأن القلوب تحس بالقلوب وان طال المدى ومضت عصور ودهور ، ونى أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهي لا محالة مريضة مرضاً لا يزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال ، فهو لاء إذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بنينا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمرّ في أوساط لسكل وسط منزلة خاصة ، فيها ما يفظ الصورة التي يحملها الضوء ، ومنها ما يجمع الضوء . ومنها مترسم السريرة عليه ويوصلها إلى ما خلقتها .

إن الانسان اذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات في تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة بتخلله تلك الملايين ومئات الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب !

علم الله أن المسلمين سيامون يوماً عميت . ره . يتهلّلون رحمة الواسعة لعقلة أكثرهم عن العلوم ، فأزل سم الله الرحمن الرحيم ترأ في الصلوات ، وفي العشرات برزحات . وفي البدء الاكل والملبس ، وكل أمر ذي مال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للسم في جيب سريره . يس هنا سعاد ادرسوا الرحمة فيها المسلمون

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن ؟ إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فانه في هذه الدنيا قد مال السعادة الحقيقية ، وأى سعادة لهذا الانسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الانساني ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يسعدون .
ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومرق للدينة في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الاسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملؤون بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أم الاسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي : أتذكر أن في ﴿سورة يس﴾ كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حجرات تمتد بالآلاف ؟ قلت نعم اتنا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حوض السكر بونيك في الجو قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجو ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حوض السكر بونيك من الجو بمساعدة الأوراق ، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أحيانا تهتدى به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات بأحداثها في معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والانسان ، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب [علوم للجميع] وقد أوجعناه الآن ايضا أم ، وذكر أن المستشفيات أما كنهها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب الى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المساهمون ماهو النظر المذكور في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وهو المبحث الأول من اللطيفة الثانية

المبحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

وإد فرغا من الكلام على العين فامبحت الآن في نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسداسها فقول ومن الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك فيها الأخ الذي سماه هذا العالم عماره جمالا ، وهذا الجمال مخلوق عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف ترى تركيبها في غاية العجب . حر كاسحر ، فما هذه الشبكة التي تتألف من عشر طبقات ، وإذا كان غلطها لا يزيد على حرج من ستة أجزاء من مليون ساكنة تتقدم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) دايين شروق و (٣) دايين غروب والأعمدة الخارية من نسورها موصلة في صيرها مرمومة ، ما ليس مع الأعمدة رأيا ، وبين سدة مخرجاتها خمس سدة أطلين مرضحة باهرة جملة . وليس شعرك كيف تكون الحارات المادة رذاذية فكثيرا من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة في

(٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها في الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع ويصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب مدقنا بل هو تقريبي ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندما ملايين تعدد بالآلاف اذ افترض أنها مثلها في أعداد أشكالها ، وادا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو السماع وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادة السنجابية فاننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ صمغية فكيف يكون جميع السماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدمة في النظر تلفت عقولنا للمظورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فاننا لاندرى في أي باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير ما نختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن ما بين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال الجسمية من أعين الحيوان والانسان :

- (١) فنحن لا نقف في هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .
- (٢) وانه ٢٣٨٨١٧ ميلا
- (٣) ولاعلى عطارد الذي يتم دورته المحورية في ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .
- (٤) ولاعلى الزهرة التي لا يزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .
- (٥) ولاعلى المريخ الذي ظهر للعلماء أن الثلج في قطبيه لا يذوب إلا ببطء وبؤكد الاستاذ [بكرنج] أن تزع المريخ حقيقية لا خداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات في المريخ مؤكد الآن ، وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأي السائد أولا أن في المريخ سكانا ثم تغير الرأي فقالوا لا سكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض الهم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا في الساعة . ولم يقتصر العلامة [بكرنج] على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال ان فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا
- (٦) وهكذا المشتري وأقماره التسعة .
- (٧) ولانكتفي أيضا بمعرفة زحل وحاققاته الثلاث المتقدمة في هذا التفسير وأقماره العشرة .
- (٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .
- (٩) ولا بنبتون الذي يدور حول محوره في سبع ساعات وخمسين دقيقة .
- (١٠) ولا بالسيار الجديد الذي كشف سنة ١٩٣٠ في ١٣ مارس المسمى [بلوطو] .
- (١١) وادا بشما في نظام شمسنا الآن نالما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا في سور كثيرة إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من اشموس الكبيرة وهي فوق سطح المجرة وتبعد عنه (٥٠٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية . وليست متبعدة بذلك بل هي دائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم ، وتحركت بعده عن الأرض ٨٣١٠٠٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بمقياس ستيفراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كعب كبيره كالثي رأها العلماء سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مايرز ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألقا مليون ميل مربع ، كما ظهرت هذه الكعب تقربت الحرارة على الأرض ، وهو من درجة ظهور كعب الشمس ، ان الشفق القطبي الشمالي يعم بلاد روسيا وبقا : ر ح ر ك ر شموس اطهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة فندمع نهاره من كعبه تشرق اعنه يسبح في الأيسر ويسبب الشفق القطبي ، ومنه الذي ظهر في أوروبا ثم بشكل يدع حتى وصل الى سربا وروث رأى الدين .

وإذا ذكرنا نبذة عن الشمس فلنتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أول نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق. م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديداً أي انها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن .

ويقول الاستاذ شابلبي في جامعة [هرفرد] : إن النجم الصغير الذي اسمه [دورادس] تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر في غيوم [مجلان] نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .
يقول الدكتور (ديزن) في خطبة تلاها في المعهد العلمي بلندن : «إن من النجوم ما يبعد عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، واشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما إشراف كل منها مثل	١٠٠	شمس
٣٤٠	» » »	٥٠	شمسا
١٣٥٠	» » »	٢٥	»
٤٨٤٠	» » »	١٠	شموس
١٣٢٠٠	» » »	شمس واحدة	.
٩٣٣٠٠	» » »	١/٢ شمس	.

فنجم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أي ٣٧٢٠ مليون مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشد إشرافاً منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم الصفراء منها ما بعده عنا أقل من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ، ومنها ما بعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم في الجزء الأول في هذا الكتاب في أوله أن جميع الشموس في مجرتنا تجري حول شمس عظيمة ، وهذه الشمس تسمى [شمس الشموس] وهي العيوق [تشديد الياء] التي تدور كواكب المجرة كلها حوله ، ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و٢٠٠ ألف مرة ، واشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : إن جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم في مجرتنا ٣٠ ألف مليون نجم أو شمس ، وقطر المجرة يقدر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذي في المرأة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السديم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم [سدم] جديدة ، فقد كشف [هيزل] أكثر من ألفي سديم في ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد فيها ٨٠٠ سديم ألغ من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرة ، ومجرتنا المذكورة يظن بعض علماء الفلك أنها سديم نولبي أيضا ، ولا يراها هكذا إلا من كل بعيدا جدا ، وبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠٠٠٠ سنة نورية . وحصل قطاره ٢٠٠٠٠ سنة نورية .

ويقول [هر] : إن بعده ٩٥٠ سنة نورية . وعرفه سدم عرف إلى الآن . إن السدم على خلاف أنواعها عرفت عن سدم مجرتنا في شمسي ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم . ولقد قلنا إن سديم المرأة المسلسلة ما بين ١٠٠٠٠ سنة نورية ، وهو أكبر في جهة كوكبة [شعر برني]

والسنبلة سدم بعدها عما مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومترا في الثانية ، وبعضها ٦٠٠ كيلومترا فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للاستاذ شابلن إذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلأن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فان نوره لا يزال يجرى الى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ ان النور يسير في الثانية ١٨٦ ألف ميل ، واذا دار حول الارض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية ، واذا دار حول هذا العالم احتاج الى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لو صغرت كالجرهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها لرأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدمنا أن في مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ، وفي الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفي الكون فضاء فوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفي مليون مليون سديم ، فاذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رجة الله الواسعة ، واسعاده لنا ، واشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هي هذه السماء ؟ وما هي عيني التي تنظر السماء ؟ اللهم حار فكرنا في جالك ، ماهذه السماء ؟ وأي عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكي - فيما كتبناه في ﴿ سورة الصافات ﴾ في أولها ، وانحجب من أن عالم الأثير الذي تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لا يحس ولا يرى وانكبه وهو كالعديم أقل من الحديد والرصاص والذهب أصعافا مصاعفة ، أي انه لو كان جرما لكان كذلك ، فارجع اليه هياك وادرسه ، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذي لا ندرك وحوده أقل من أقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ اذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التي تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألسنت أيها الذكي - وأنا أدرس العين مهك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال في طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلا ترى معي أيها الذكي - أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ما تحويه مجرتنا من الشموس ، وأن مخنا في عظمته يشبه شمس الشموس في عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها في عدد كراكمها .

دهشا يا الله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكبيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قورك : « أقم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بيدها وربها وما لها من فروج » .

إن في هذه السورة : (١) الرجة في السمة (٢) وانظر (٣) والسماء والآية ، ولعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، سيدرس ذلك المسلمون بعد ما قرؤوا وترؤوا . وستفتح لهم أبواب وأبواب في هذه الثلاث ، ولكمهم بعد آلاف السنين بخاطهم الله قولا « وما وتبتم من انتم إلا قبلا » .

أيها المسلمون : « السنة الخلق قلام خلق » ، سنة شهر في كل محاسن ومنهم مائة واثم والعلماء على حد سواء وهو : « القرآن لانتهى عماءه ، ولا تقضى غرضه » . رث اسديت : « إن أهله لشهر ، وان

أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه .
 الله أكبر : هاهوذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا
 بالسعادات والهناء والكمال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقراً هذا المقال في تفسير الرحمة ، وتفسير : قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فيقولون : اننا في
 الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء
 بعد » ، ثم يقولون : « إن الحمد ليس مادة تملأ بها السموات ، وإنما الحمد ثناء بالجميل على من له جميل
 اختياري » ، وهذا الثناء لفظي لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم
 بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح جدها عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم
 إنما هو حضور صورة المعلوم في نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم في نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ،
 وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلي يكون جده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر
 المصلي للسموات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلاً أم كثيراً والحمد على مقتضاه ،
 وكلما ازداد المصلي علماً بهذا ازداد من ربه قرباً .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها في هذه العجائب ، وعبر عن
 إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلي العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملاها ، وكل امرئ يملأ
 العوالم ، هذا في حال الرفع والاعتدال ، فأما في حال السجود فان المصلي يقول : « سجد وجهي للذي خلقه
 وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فهنا ذكر المصلي السمع والبصر والله يقول :
 « فاسجد واقترب » فهنا الاقتراب لأن الدقة في صنع السمع والبصر كما قدمناه أخرى بأن تقرب العبد من
 ربه « والنظر للسماء في حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالسلم في ذكره السموات كالمبتدى ، وفي ذكره السمع
 والبصر في السجود كالمتهى ، وهذا هو الحق الصراح ، الأثرى رعاك الله أن موضوع البصر الذي شرحناه
 في هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى في نفسه شوقاً وحياً وغراماً ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة
 والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء في هذا النوع الانساني ، بهذا يقترب الانسان من ربه
 اقتراباً علمياً مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فهاهوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع
 والبصر ، وتشرح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما
 النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار
 على احكامها ودقتها كدقة حذقة العين التي تقدم شرحها .

الله أكبر : ان الآلات الدقيقة المعدنية المنكية قد لا تساوي درهما أو دراهم قبل صنعها وهي بعد الصنع
 قد تساوي مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على
 عظم الأجرام حشرنا الله في هذه الأرض ، وأمرنا ألا نظير منها إلى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه
 الأرض وما حولها وهو علم أننا ان ندرسها إلا إذا احتجنا إلى ساقها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن
 وبقائنا لحكم علينا ان نعتد منها هي ، وأدروسها إلى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا فنتيجته ارتقاء
 نوعنا ، كل هذا يفهم من أقوال المصلي في « لا ، إذ شكر ربه على السمع والبصر بهد أن شكره على
 السموات والأرض ، ثم بعد ذلك يقول : « واسجد واقترب » ، إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟

لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها اجالا فأنما هو تشويق للباحث الجزئية .
 اللهم إنا نحمدك جدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على
 الفهم ، ومن أجل العلم أن دين الاسلام يتزج بمصالح الدنيا بحيث ان أجل العبادات وأشرف الأعمال ما كانت
 وجهته المنفعة العامة للأمة ، فهذه هذه مسألة العين وطبقاتها وابداعها وجاهها كيف كانت دراستها من أسباب
 حبك ، والاستغراق في بهجة جالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلى في رفعه ،
 وفي سجوده في أقواله يجمع ما بين مبادئ العلوم في الأول ونهاياتها في الثاني ، وكيف كانت أقواله في الرفع
 منطبقة على الدراسة العامة في المدارس الثانوية في جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الامام
 بالعوالم المحيطة بنا بقدر الامكان ، ثم كيف كانت أقواله في السجود في حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة
 للدراسة الخاصة التي بها يكون الانسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .
 ومن أعجب العجب أن ما تقدم في دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس
 وهدى ورجة .

تسييح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصا من معنى قوله تعالى : « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسييحهم
 إنه كان حلما غفورا » ، أم ترى عاك الله إلى سواد القرنية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التي
 جعلها حتى تصل الى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى ادراكه ، فأما العاشق فلا يهيم إلا
 أنه جال ظاهري فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش في الحياة ، وأما الطبيب فانه ينظر اليه من حيث
 الصحة والمرض ، وفي الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فانهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى
 رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : ان هذا السواد انما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط
 الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفي ﴿ سورة الروم ﴾ وكيف نرى
 أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر أكثر
 أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات ! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض في أمريكا
 يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفاتكات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها
 على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع في القفار ، ثم كيف نرى الزبور ظاهرا بقرنه
 ونقشه لا يخاف عدوا ، ولا يبالي بصروف الأيام ، ذلك لأن له حجة تفكك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفي ﴿ سورة الروم ﴾ مع الصور الشمسية فارجع
 إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث في أفعاله ، وأنه لا يضيع لونا ولا شكلا ولا حجما إلا بالحكمة ، ولم
 يلوّن العين ويجعل في قرنتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولا رطوبة بيضية ولا قرنية ولا انسان عين
 وهي الفتحة في القرنية ، ولا لوربة ، ولا رطوبة زجاجية ، ولا شبكية ، ولا شيمية ، ولا صلبة إلا بالحكمة خاصة
 ترجع للنظر .

فياليت شعري هل للتسييح معنى إلا هذا ؟ هذا تسييح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه السمة وهي نعمة
 العين ، وأما التسييح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها بحكمة
 تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : « وان من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسييحهم »
 أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكرنا بآية الأنعام إذ يقول : « ولقن الاصباح
 وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حاسبانا ذلك تسيير العزيز العالمين » .

م قال : « وهو لذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » جعل العلم في جانب علم الهالك ، والفقه في جانب الانسان وعلم التشريح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لاتفقهون تسيبهم » يشير إلى مافي الطبيعة من العجائب كطبقات العين وابدانها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حاميا غفورا » ، فأما حاميه فهو ظاهر ، فان الانسان منيحل على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الانسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الانسان عليه لقالة إدراكه ، وهذا هو السبب في قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لاتريد منكم جزاء ولا شكورا » فهكذا يامل الله عباده ، فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فاننا لانجد عالما ولا جاهلا في نوع الانسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبياؤنا الفقراء والمساكين لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حلما » في هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العاى من أعطاه مالا ، أو كساه ثوبا ، والغفران هنا كالغفران في أول سورة الفتح الذى جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالتة حليم على عبده لجهله ، فاذا استعد للعلم وبه يعرف النعمة ويجب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتح والله هو الولى الحيد .

سر من أسرار حِكَمِ العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوّة الغضبية أشخاص الحيوان ، فهنا نور حفظه سواد القزحية في العين ، وههنا ماء حفظه الجسور ، وههنا قوّة شهوية في الحيوان أحاطت بها قوّة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وههنا أم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أوحياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية في آية : « أفل ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها فروج ، أى مبجئها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها ، وكل هذا قد لوحظ في بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج

بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

في هذه اللطيفة مقالتان

المقالة الأولى في قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم ودول : لقد تقدم في هذا التفسير مقالات كثيرة في النبات ، ولكنى أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامى . فقلت : أيها الأخ الحكى : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثره لاصباط لها إلا العلم ، ولاجرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة وان يضبطها إلا الوحدة ، فقال مامعنى الوحدة هنا ؟ فقلت : إن عقول الناس في هذه الأرض كلها مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هى التى تظمئن بها القلوب ، ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ، ولكل بلدة رئيس ، ولكل أمة ملكا ، أو أميرا ، أو رئيس جمهورية ، كل ذلك للوحدة ، ونظير هذا في العلوم فاهم

قسموها إلى مجموعات كل مجموعة سموها علما ، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله إلى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أي بعد البحث والتحصيل ، فهناك تطمئن القلوب الحديمة التي درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما تعامة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهي الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ، لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا في هذه المسألة التي هي مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وماعلم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، نراها مبعثرة مشتتة : نهر ، بحر أرض ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، حمل ، حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لا يدري الانسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها ، كذلك علم النبات فانا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عبل ، نخل ، صنوبر ، قمح ، وهكذا لا ضابط ولا قانون فلاحم ، وإنما هي أمور مبعثرة هنا وهناك ، فإذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسننا في أنفسنا بسعادة عامية جزئية ، ومتى درسنا مجالات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التي لانهاية لها في نفس هذه الحياة سعادة مجملية محتملة .

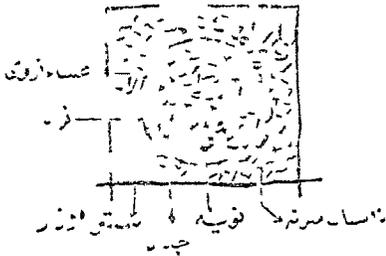
فقال صاحبي : والله لقد شوقتني إلى هذه الوحدة في النبات التي بها تكون سعادتي . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أحيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتي)

وأشرحها لك فأقول : « إذا تركيب جسم النبات من خلية واحدة سمي « وحيد الخلية » أما اذا تركيب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتركب مادته من جدار خارجي مادته كبروايدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السيلولوز » وفي داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهم في الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، ولنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غير أن للمادة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها :

- أولا : ان للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء [أي تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية] .
 - ثانيا : انه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .
 - ثالثا : ان له القدرة على النمو .
 - رابعا : ان له القدرة على الحركة .
 - خامسا : انه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .
 - سادسا : ان له القوة على التكاث والتوالد .
- وبروتوبلازم الخلية يشمل جسما برافا أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتوبلازمية التي حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

النواة

تركب النواة من شبكة مكوّنة من قضبان صغيرة تسبح في سائل يعرف « بالسائل النووي » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووي » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروي صغير يسمى « النوية » وقد تحتوي النواة على نوية واحدة أو أكثر .



(شكل ٨)

والنواة أهم جزء في الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأول منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثاني خاليا من النواة ، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثاني فيموت بعد فترة من الزمن اه

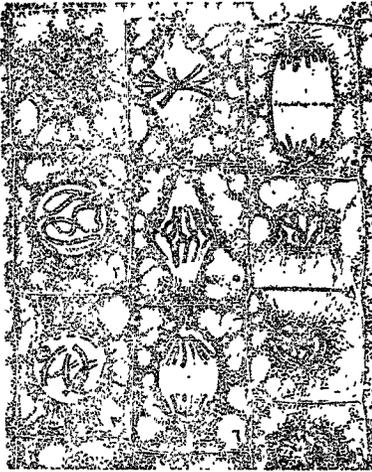
فقال صاحبي : إذن هذه الخلية هي أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لي أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسليولوز يحفظ ما في داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هي كالجوزة ، أركز رأس الانسان لها عظام في داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا في الحيوان قوّة يحافظ بها على نفسه تسمى عضوية ، وقوّة بها يعيش وهي الشهوية ، فأولى كالمسكن ، والثانية كالكسكان ، إذن القاعدة واحدة في هذا النظام العالمي ، وهذه الآراء هي مبدأ السعادة التي حدثتكم عنها ، فإذا أمكننا أرجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نرتفع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات . فقال : أريد التفصيل بعد هذا الاجال ؟ فقلت : إن النباتات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ - الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام في خلايا بعض النباتات الدنيئة في الغالب بسيطة ، فيحصل خز في وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ - الانقسام غير المباشر

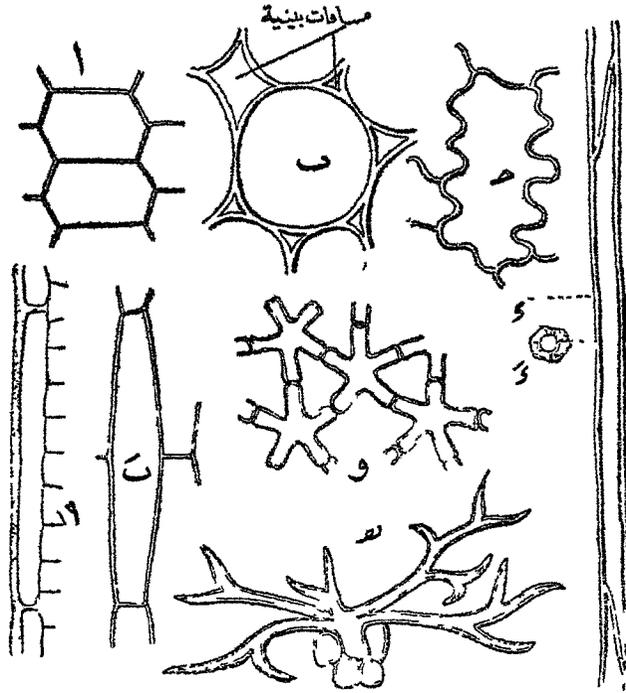
انقسام النواة في الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه في الحالة السالفة (شكل ٩) فعند ما تأخذ النواة في الانقسام تنفصل القضبان التي تتكوّن منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طويلا



(شكل ٩)

إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، انقسام الخلية غير المباشر ١ - ٩ أدوار مختلفة في الانقسام وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان في قطب ، والأنصاف الأخرى في القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكون غشاء في السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين ، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتهما متشابهتين في صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر اه

ثم قلت : انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألتراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تتخالف طرائقنا في بناء مدننا ، فنحن نبني بيوتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكاهها كلها واحد أم هي أشكال مختلفة ؟ فقلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل ان هنا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فان العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهي مختلفة في صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ - (١) خلايا مرستيمية (ب ب) خلايا برنشيمية (ج ج) خلايا البشرة ويري جدارها العلوي غليظا (د د) خلايا ليفية (ه ه) خلية شعرية وبرية متفرعة ، (و) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة)

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع ، مختلفة التركيب ، فما كان منها مساوي الأقطار كرويا أو مستطيلا قليلا رقيق الجدران ، وبه فجوة وسطية سمي بالخلايا البرانشيمية ، وعندما تنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها ، ويتكون بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية (شكل ١٠ - ب) وهي موزعة في النبات بحيث يتمكن الهواء من تحلل جميع أجزائه ، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما في نبات الصنوبر .

ثم قلت : انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلاكيف فعلت ما فعله نحن فإنا نضع أمتعتنا في الخلاء الذي في داخل مساكننا ، وإلى العباب كيف تحللت منه خلايا لا يكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع .

فقال صاحبي : أما الآن فإني قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقتيا ، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها . فقلت : أما أدنى النباتات فهي النباتات الدائمة التي تتركب أجسامها من خلية واحدة ، تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل ، أما في النباتات الراقية فيتكون جسم النبات الواحد من عدد لا يحصى من الخلايا ، ولكي يقرم النبات بوظائفه خير قيام تخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالسبيج ، وعلى ذلك يكون السبيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة في الأصل ، وغالبا في الشكل تقوم بعمل متماثل ، وأسجدة انسات الحية تتعاون جميعا في تأدية وظائفه الحيوية ، ولا يمكن للسبيج الواحد منها أن يستقل بذاته وتعمل عن باقي الأسجدات لتتولى به تدريجيا .

ثم قلت : انظر أليس تركيب النبات تقسيمه كترتيب لجسم إنساني عام . فهل : وكيف ذلك ؟ فقلت :

ألمت ترى أن النباتات الدنيئة التي هي من خلية واحدة وهي التي لانراها بأعيننا التي تشبه في صفرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرية التي لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فان البدوي في خيمته هوكل شيء ، هو آدمي له السلطنة على منزله ، وهو المدافع عنه ، وهو الحافظ له ، ويعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ، أما النباتات الراقية فهي حتما أشبه بالأمم التي فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ ، وكما أن كل جماعة من هؤلاء في الجمعية الانسانية لاقية له مستقلا ، هكذا كل جماعة من جماعات الخلايا اذا استقلت فان خلاياها تموت .

وسترى في سورة الواقعة عند آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض في الأول ، وعلى ذلك اذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدروس حال الجؤ وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فان الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقى بدسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أريد أن تشرح لى أولا النبات ذا الخلية الواحدة ، وبعد ذلك تشرح لى النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أد كرك بما مر في سورة حم فصلت فى المجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فانك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفلة الأشكال وبها الحياة وبها الموت ، فاولاها لم يكن نبات مما ننتفع به لأنها هي التي تفتت المواد الغذائية لتسكون صالحة لأن يمتصها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الانسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضررها ، لذلك أبقاها الله فى الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطرى الذى هو خلية واحدة الخيرة ونحوها ، هذا هو الذى تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فانه موضح هناك أى إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فاذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أ كان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة ، فذوات الفلقتين مثل : السكرنب ، والقنبيط ، والفجول ، واللفت ، والشليك ، والنفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والسكريز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس ، والفاقل ، والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحية ، والتمرهندي ، والخروب ، والسنامكى ، والفول البلدى ، والفول الرومى والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والخص ، والفول السودانى ، واللويبا ، والبسلة ، والبلابل ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، واتمطن ، والباميه ، والحجازى ، والالوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والشوم ، والكراب البلدى ، والكرات أبوشوشه ، والهلبيون ، والصبار ، والنخل والدموم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والدنيبه ، وقصب السكر ، والعب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرح فى شرح ساق كل منهما لأنك شوقنى إليه ، فاننى أرى الفول والفاصوليا والعدس والحبية والخص من ذوات الفلقة الواحدة ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ، ومن العار أن يكون الجار حضرا أمم ، ونحن عندنا نحن كالحاميان أمام الغادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكبرن أنزل طقة منه يراها الانسان :

(١) ما يسمى [كيوتين] وهي مادة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تبقى النبات تأثر الجفاف من زيادة بخار مائه الداخلي ، وقد يكون الكيوتين سميكا في النباتات التي تعيش في المناطق الجافة وريقتا في النباتات التي تعيش في المناطق الرطبة ، هذه هي الطبقة الأولى . ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهي خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(١) وهذه البشرة قد يمتد منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أرحلانيا ، وقد يفقد الشعر ما في داخله فيمتلئ بالفضاء فيظهر كأنه أبيض ، ونارة تكون فيه مادة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهي له وقاية حقيقية .

(ب) وفي هذه البشرة ثقب ، وتسمى ثغورا ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، ونارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويلبها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهي قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية :

(١) وفي أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحواجز الغر بالي ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفي أسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم .

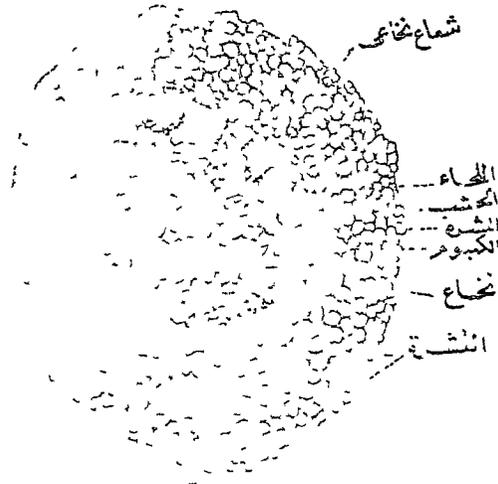
(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى [الكيميوم] .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكون منها اسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهي تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تسمى بين الحزم الوعائية .

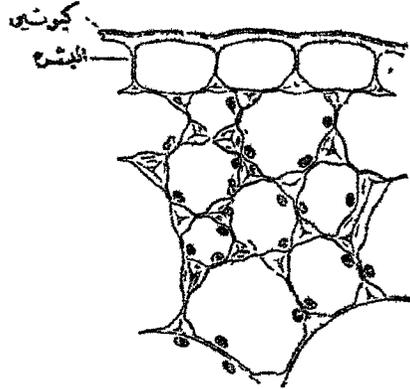
فتعال صاحبي : هذا حسن ولكني لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها في العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ - قطاع عرضي في ساق حنينة)

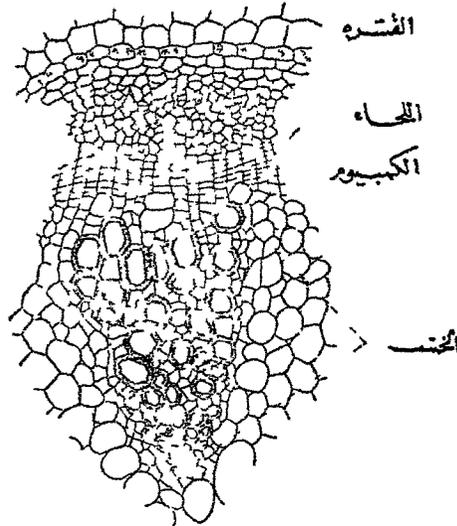
فهذه ظهر فيها : الشعاع النخاعي ، واللحاء ، والخشب ، والبشرة ، والكيميوم ، والنخاع ، والقشرة .

فقال : ولكن أين [الكيتونين] ذلك الذي يحفظ للزرع مائه من الماء إلى آخر ما تقدم . فقلت : انظر شكل ١٢ وهذه صورته



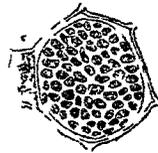
(شكل ١٢)

فقال : أما ما رأيت الخزم الوعائية ؟ فقلت : ها هي هذه (انظر شكل ١٣) :



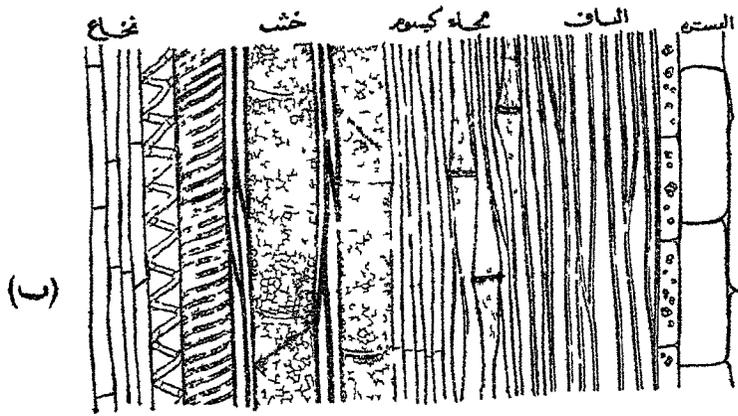
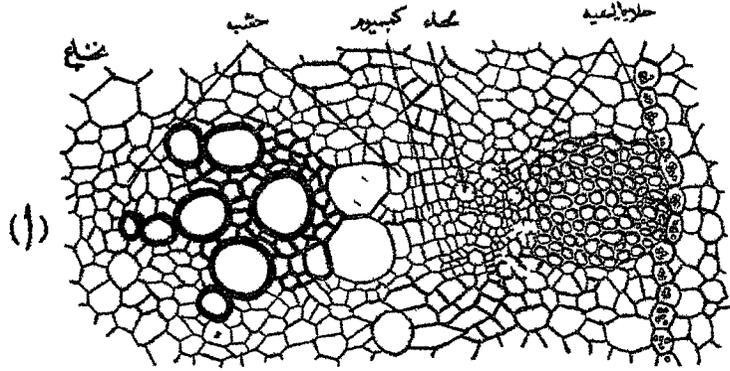
(شكل ١٣ - قطاع عرضي في حزمة وعائية صغيرة)

فقال : وأين الحاجر الغرابلي ؟ فقلت ها هوذا (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ - حاجر غرابلي)

فقال : ولكن أين الخلايا الليقية ؟ فقلت (انظر شكل ١٥ في الصفحة التالية)



(شكل ١٥)

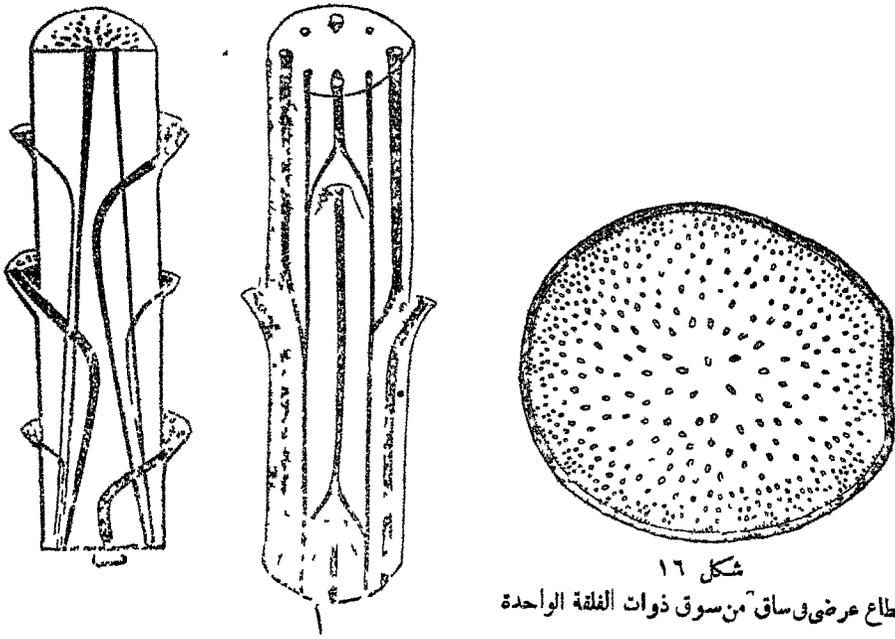
(١) قطاع عرضي في حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار اللحاء

(ب) قطاع طولوي في مس الحزمة .

فقال : قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكني أريد أن أمتحنها بنفسى في الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط اللبنة التي تمتد طولاً في ساق نبات رحو كالحلبة أو الملوخية بازالة مايحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف في الساق بالاسطوانة الوعائية ، والحيط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة في النبات ، ومن السهل أيضاً مشاهدة الأنسجة الرخوة التي تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذي في داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزي من الساق يسمى [النخاع] والذي يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى [القشرة] وتعلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكون من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما في شكل ١١ المتقدم قريبا .

فقال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الملقحة الواحدة ؟ فقلت : الحزم الوعائية في سوق ذوات الملققتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما في سوق ذوات الملقحة الواحدة فهاها كبيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح (انظر شكل ١٦ و ١٧ في الصفحة التالية)

ولذلك لا يمكن تمييز مناطق التشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فان

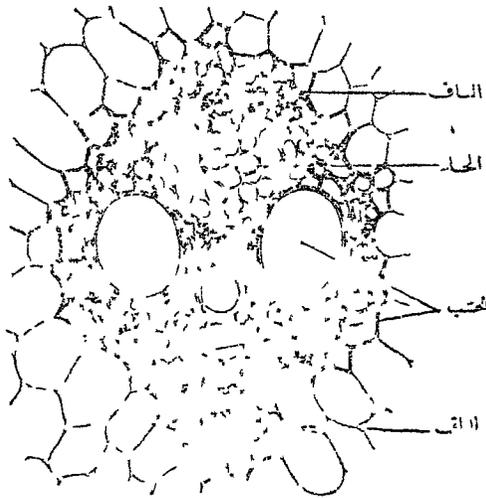


شکل ١٦
قطاع عرضي في ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة

(شکل ١٧)

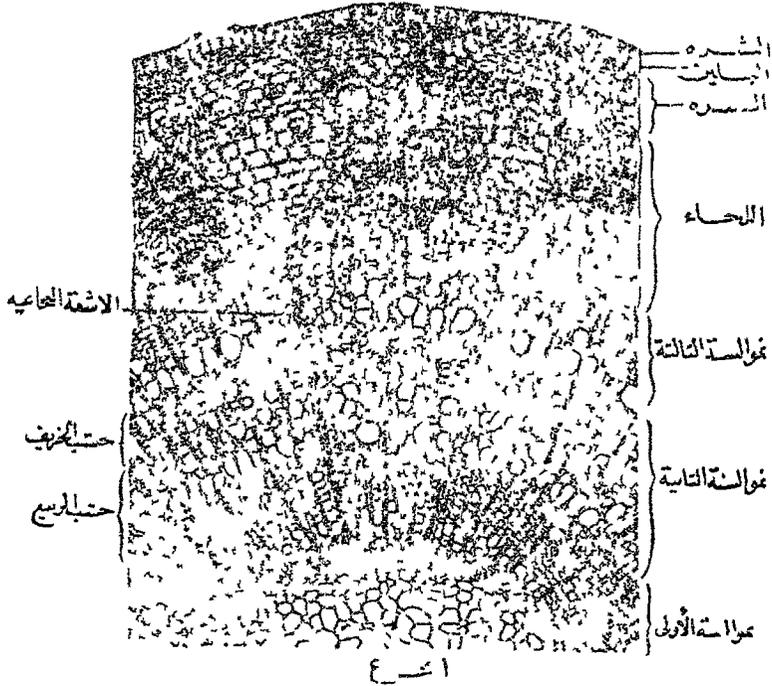
- (ا) بين سيراخرم الوعائية في ساق ذوات الفلقتين .
- (ب) بين سيراخرم الوعائية في ساق ذى الفلقة الواحدة .

خزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكميوم (انظر شكل ١٨)



(شکل ١٨ - قطاع عرضي في حرمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

فقال صاحبي : أريد أن أعرف الفرق بين ممو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين
قلت : إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد في السمك عاما بعد عام إلا في بعض أحوال شاذة (انظر شكل ١٩)
منلا في شجر الجيز ، أو اللسخ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أى أحدث
أجزاء الساق سننا) رفيعة ، وأنها تأخذ في الغلاف كلما اقتربت من أسفل الساق (أى جزء الساق الأكبر سننا) ،
أما في السخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلط الساق مة ساو تقريبا على طول النبات ، وذلك
لعدم حصول زيادة في السمك .



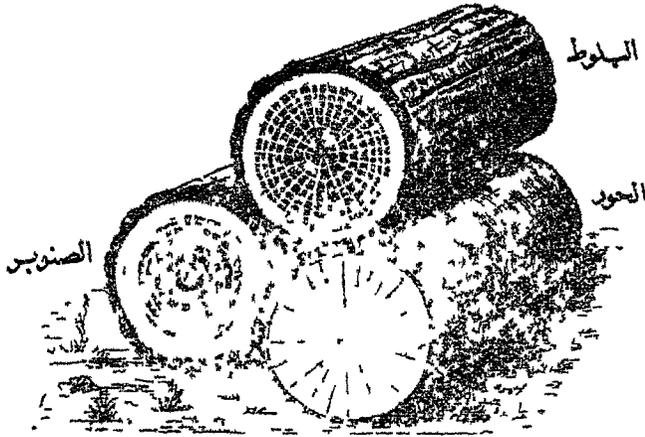
(شكل ١٩ - قطاع عرضي في ساق عمرها ثلاث سنوات)

والزيادة في السمك ترجع الى نشاط طبقة الكمبيوم التي في حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتنقسم خلايا الكمبيوم مكونة خشبا في الداخل (أى في جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أى في جهة القشرة) وفي نفس الوقت تتحول خلايا الأشعة النخاعية التي توصل بين كمبيوم حزمتين متجاورتين إلى خلايا مرستيمية وتكون خشبا في الداخل ولحاء من الخارج ، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم .

الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التي تتكوّن في الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج في فصل الربيع (أى في فصل النشاط الذي يلي فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنمو أوراقه وأزهاره الخ أما في فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة في ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتمّ نموه السنويّ وبدأ يستعدّ لطور السكون . وفي الربيع التالي تتكوّن الخلايا الخشبية الواسعة مرة أخرى ، ولذلك يلاحظ في القطاع العرضي للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نموّ سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق اذا عمل فيها قطاع عرضي وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ مم ٢٠ في الصفحة التالية .



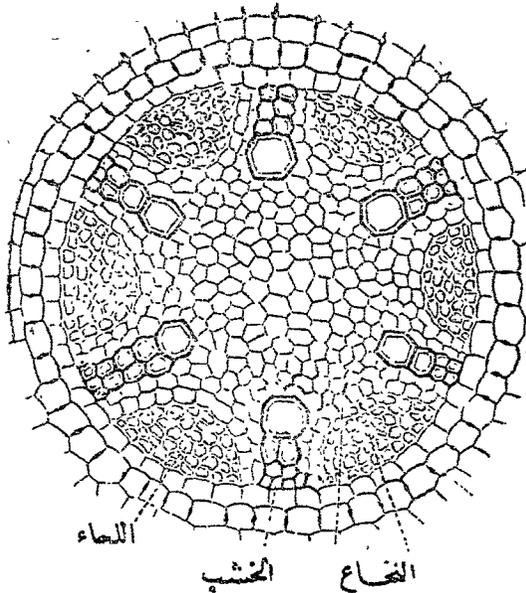


(شكل ٢٠)

شكل الحشب في أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية والقلف

وتشاهد الحلقات السنوية في سوق النباتات التي تساقط أوراقها في أواخر الخريف ، وخصوصا في البلاد التي فيها فارق عظيم بين درجتي حرارتها في الصيف وفي الشتاء ، أما في الأشجار المستديمة الاخضرار فن الصعب تمييز هذه الحلقات ، وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبي : كفي ما تقدم في ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ، ولكني أريد أن أعرف شيئا قليلا عن تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور يطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهي المنطقة الدائمة فيه (انظر شكل ٢١)



(شكل ٢١ - قطاع عرضي في الإسطوانة الوعائية لجذر)

فقال : أما الآن اكتفيت بما تقدم في تشرح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية .
فقلت : هي أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهي :

- (١) مجموعة النباتات الثالوسية .
- (٢) مجموعة النباتات الحزازية .
- (٣) مجموعة النباتات السرخسية .
- (٤) مجموعة النباتات البذرية .

ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهي التي تقدمت في سورة فصلت ، وقد عرفت أننا ملخص ما هناك فان فيها البكتريا والفطر [بضم الفاء والطاء] والطحالب ، وهذه كلها وانحوت هناك فارجع إليها ، فانك تعرف أكثر مما هو حاضر في ذلك ، وهناك صور جميلة توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات الحزازية . فقلت (انظر شكل ٢٢ و٢٣ و٢٤) وهالك صورها :



شكل ٢٢ نبات حزازي قائم



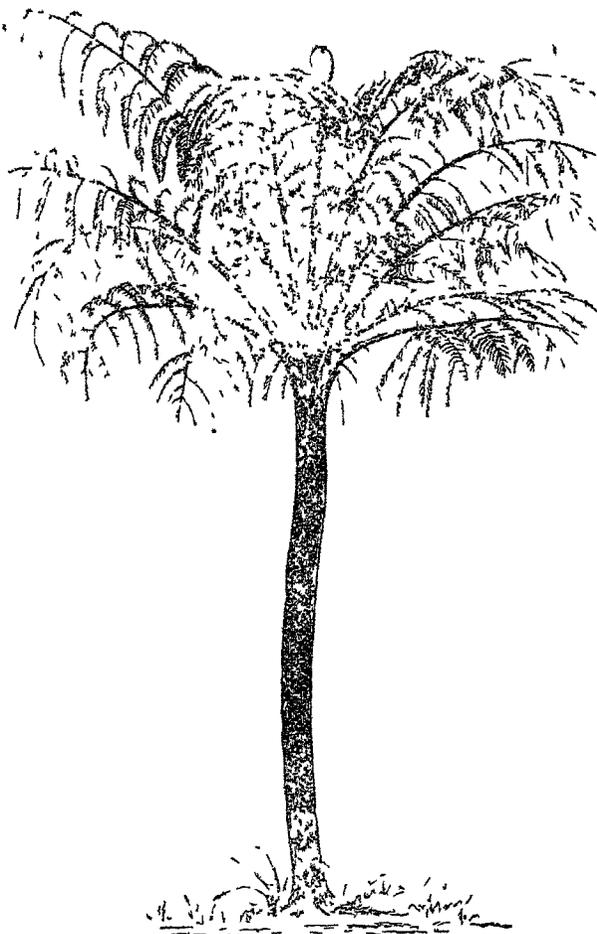
شكل ٢٢ نبات حزازي منسطح



شكل ٢٤ - الخيط الأول وعليه برعم

فقال : وما مثال النباتات السرخسية ؟ فقلت انظر شكل ٢٥ و ٢٦ في الصفحة التالية





(شكل ٢٥ - أحد النباتات السرخسية الشجرية)

(شكل ٢٦)



فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقلت : الكلام عما يطول ولكن نختصره هنا فتقول :
تعتبر النباتات البذرية أرقى المجموع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في
أعضاء خاصة تعرف بالأرهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : —
(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تكون بويضاتها معرضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص
(مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في
العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في القصر والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة
البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض .
وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له .
وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقة الواحدة

ذوات الفلقتين

لأجنتها فلقة واحدة .

(١) لأجنتها فلتان .

الحزم الوعائية لا تحتوي على كميوم بين الخشب
واللحاء ، وهي مبعثرة بدون نظام خاص في
الساق .

(٢) الحزم الوعائية تحتوي على كميوم بين الخشب
واللحاء ، وهي مرتبة على شكل دائرة في
الساق .

لازداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة
وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين .

(٣) تزداد سوقها في السمك عما بعد عام .

العروق عادة متوازية ، وفي النادر شبكية .

(٤) عروق الأوراق متفرعة على شكل شبكة .

أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكررات ثلاثة .

(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية أو خماسية .

والى هنا تمّ الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية في قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، وأسعادك ، وأمدادك ، هانحن أولاد إله ربنا عرفنا إبداعك في نباتك :

(١) فانك أبدعت في تركيبه بحب جعلت في كل ساق مجموعات من السبيج الخاوي ، ولكل مجموعة

منها عمل خاص ، فهى إذن أشبه بهيئة ذرلة لكل طائفة منها عمل ، وليس في عمالك معطل :

« وما خلقت السموات والأرض وما بينهما «عيز» .

(٢) وذاك أبدعت البشرية (انظر شكل ١١) بحب جعلت خلاياها ملاصقة تمام اللاصق : وجعلت

ما يلي الهواء أغظ مما سواه لتقار على تحمل ما يحيط بها .

وجعلتها قوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لا حد لها كماها للحفاظ على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لا يزيد ثخنها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفي آخرها أسطوانات ومخروطات تعد بالملايين كمثل جعلنا لأجل ابصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لقيمة لها والله إلا بأن نعم هذه العجائب ، وهذه هي التبصرة المذكورة في الآية ، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتتمرن على النظام والحكمة ، وتوسع قوتنا ونفعا أننا ، هذه هي التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان ، لماذا ؟ لتعظيم التبصرة فلذلك ارتقوا في الحياة ، إن الانسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطالعا على أعمال معلم النبيين والمدرسين في الأرض ، بل الانسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقراد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : « تبصرة » والانسان بدون تبصرة لقيمة حياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء غضب ، وإنما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها في المدارس الثانوية كما تدرس في جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : « تبصرة » . فأنت لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأنت لأمة الاسلام بعدنا اذا هم أهملوا ما ذكرناه . وأقول وأنا وأنتي مما أقول : ان أمة الاسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقى الانسانية على أيديهم ، وهذا الكتاب من مقدمات نهضتهم ، والله هو الولي الجيد .

المقالة الثالثة في قوله تعالى : وذكرى لكل عبد منيب

عرفنا اجال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات ، وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرتت على ما رأته من الحكمة ، فهي لا محالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا ؟ ، والاجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أى تتذكر عالمها الذي أخرجت منه ، إن المادّة جميعها تقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهرب نواتج من موجات في بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت موادّ تراها مختلفة الأشكال وهي غليظة ، ولكن أرواحنا أرقى منها ، فهي جاءت من عوالم أرقى ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

ايضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملمم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجباً ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أسرا عجيباً ! وهي لذات بحسبها في نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف تحسب به عقولنا كما تحسب بالطعام معدتنا ، نرى الناس ما داموا أحياء لا يسعدون إلا بصورتدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ، ومحادثات الاخوان ، وقراءة الجرائد والأحبار ، ولن نرى أحدا في الأرض يشع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكير لا يقف لحظة ، ولا معنى للتفكير إلا بصور ذهنية ، وكما تنوع

النبات فكان منه ما يمتد على الأرض ، ومنه ما يوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أى لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض فى حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعدّ لمدارس العالم كلها وللروايات والمحدثات ، والبصر أعدّ لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبر ، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتعندى بها ، النفس لا تفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطوق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقابل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والنزق ، إذن هنا صور لا حد لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أولاً لأنها كثيرة جداً فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانياً لأنها لا يصحب غيبتها آلام كالآلام الجوع والعطش بغية الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولا حياة للإنسان بدونها بل هى ملازمة له مادام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وقائمهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائماً ، فغداؤها دائم لا مقطوع ولا ممنوع ماداموا فى الحياة وهو أزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس فى عالم الأرواح ، لأن الروح لا غذاء لها أفضل من العلم والحكمة اذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لا سخافة فيها كسخافة الصور العقلية لتورى النفوس الضعيفة فى الأرض فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه السمات وهم غافلون ، فهذا غداؤهم كما تعندى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فاما تتوارد عليها صور جميلة عامية ، وهذا الذى نراه فى عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تكون تعذيتها أعظم للروح اذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد فى الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس ، وما هو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزه عن القصد فى أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحكمة ، هذا الذى تقدم فى النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعله ، وهذه اللذة العلمية بحسبها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه والا فلامعنى حقيقة التسبيح إلا بأمدال ما ذكرناه والله يقول : « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » الخ ويقول : « يسبح لله ما فى السموات والأرض » الخ .

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : « ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وجاء فى القرآن : « وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : « إن كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لا نسمع » ويقول آخرون . كلاً . بل هو تسبيح بلسان الخ . واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فانهم يتعلمون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ مهـر أو بركة فى كثرة الأسماك وقتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فالعجب لما ذكرتك به أننا كيف يرى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادة [الكيوتين] حافظة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون القرحة الصور الداخلة فى العين من التشويش كما رأيت مرهنا

عليه في أول هذه السورة في تفسير البسمة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وهنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرتت وستمرت في هذا الكتاب ، ألسنت أيها الذكي تحس في نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلاوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك في حضرة الجمال والحكمة ، ألسنت ترى في نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك في ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المنهج بهذا الجمال في الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس في الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات ومحجائه ، وكل نظام منظر ومسموع يحدثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذي نشعر به هو سر التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم في غاية النظام ، واذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحت لها ، وهذا هو الجسد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السر في قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك » إذ لا معنى لتزيهه عن النقص إلا بالكمال ، فإله منزه عن النقص في أفعاله ، وذلك بالحكمة في النظام ، والحكمة في النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهي التي تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه الام وهذه الحكم كلها شيء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فاذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر في طلب التسبيح والتحميد والتكبير في كل آن في الدين الاسلامي ، إذن هذه بذور بذرت في بلاد الاسلام كما أن الله عز وجل أودع في نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الريح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت في أما كن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندرون الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا في التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكترون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سر التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سر الحديث الشريف : « وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون ان الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الحيات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ في المناسبات المتقدمة ، والعاملة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون . أما أكابر الأمة فيهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا في نعمة لاحت لها ، مبدوها في الدنيا و بعد الموت مباشرة يحسون بملاحة من النعيم لأن أرواحهم تفرغت لما كانوا يعشقون في الدنيا ، إذن التسبيح اللدني في الحقيقة أشبه بمقدمة للتسبيح الحقيقي الذي يفقهه الحكماء في الاسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : ماذا تقول في الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه في التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال انه يخالفك فانه يقول انه كان في بداية أن فتح عليه يستحم في ماء فسمع أصواتا لاحصرها تسبح الله ، فخرج يحرقى من فوره ، وسمع أصوات الأشجار بلعات مختلفة ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات في التسبيح ، ثم بحث عنه ففرغ أنه مجنون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لعظي . فقلت : أولا نحن لا ندرى هل هذا القول للمسبوب له ورد عنه أم لا ؟ وإن كان في نفس الكتاب . نانيا أنه سمع ذلك وهو في أول أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفة بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وما تسبيحنا إلا أمط نذل على معان ، واملاء عقولنا بالمعاني المفصلة

هو المطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهوائها تعرف هذه المعاني على التسليم بأنها تعقل ، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات ، وخوارق للعادات غير مقصودة لحكام الأمم الاسلامية وعقلاؤها ، والقرآن صرح بأنه لا مدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن المسيحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنو آدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، وإذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لاقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هي هذه العلوم التي ندرس بعضها في هذا التفسير ، فاذن التسبيح الحقيقي لكل عاقل من ملك وانس وحنن إنما هو ما شرحنا بعضه في هذا الكتاب ، إذن التسبيح اللفظي إنما هو نموذج والتسبيح الحقيقي هو المقصود ، فإذا سمعنا الله يقول : « سبح لله ما في السموات وما في الأرض » وإذا سمعناه يقول : « يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » عرفنا أن هذا هو معناه ، فأما عقلاء بني آدم فإن تسبيحهم اللفظي مقدمة لهذا التسبيح ؟ فليسبح المسلمون في جميع الأوقات ، فهذا عبادة في حد ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها اخوانهم في الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنو آدم له زارعون ، وعاماء النبات في نوع الانسان حكماة الاسلام في أمة الاسلام .

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر ﴿ سورة الطور ﴾ عند قوله تعالى : « وسبح بحمديك حين تقوم » الآية ، وأوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ : « سبح لله الخ » فقلت نعم ان هذه المعاني كلها خطرت لي وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكنني بعد ذلك حين قدمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية في هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامة لجعلتها في هذا المقام لهذه المناسبة . فقال : وهما سؤال آخر ، وهو : هل آية « وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج » يعوزها هذا كله ؟ فلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدمون لم يطاؤوا في مثل هذا كما أطلت أنت . فقلت : قد أطالوا أكثر مما أطلت أما . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التي بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال امامنا الشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضی الله عنهم أجمعين فعملوا ملوكهم ، وأقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامة يتخبطون في ديجور الظلام ، بل سهوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحيمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جنّا في زمان وجدنا الأمم الاسلامية كثيرة ، والأحكام مدونة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم في الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن اهتمّ بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أنني يجب عليّ أن أؤلف لهذه الأمم الاسلامية أعظم علوم الاسلام لكي تترك لعظماء الاسلام بعدنا الطريق مهيّدة ، ليربوا هذا الشعب المسكين التريية التي لم تكن لتحدث في الزمان الماضي لأن الأمم لم تكن مستعدة لها ، والقرآن جاء بأمرين اثنين : أوّلها نظام الأمم وحكمها وتهذيبها ، وثانيتها تربية العقول تربية راقية عامية حكيمية ، ولما كانت الفرس والروم أيام السّورة قد اختلت دولهم ، وورث المسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم أطمع علماءهم وأطمعهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام ، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم في أحوالهم الخاصة فنفخوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أمما وعالما وعاملا ، فلننفع نحن في هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم ما فعله آباؤنا في تلك الأحكام ﴿ وبعبارة أصرح ﴾ إذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعدّ بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا في ذلك الزمان ، فهكذا نحن في زماننا فعل ما فعله آباؤنا في زماننا بعد أن آمنوا ما علمهم ، وإذا سمعنا الشافعي رضی الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ريع الأحكام الشرعية وهو القباس ،

ويقول انها نوجب علينا القياس ، وادا رأينا آية الوضوء تستنفذ جهد العلماء في التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهم هذه المعارف ، والعلم والمعارف هي المنجوبات في نحو هذه الآية ، وأنا واثق جدد واثق ، بل كأتى أشاهد أمامي أم الاسلام في أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن ما كتبه الآن ان هو إلا مذكرات لما يدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شىء عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر سنة ١٩٣١ م

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسعتها وكواكبها ، فاذا كانت أعيننا لاحد لعجائبها ، وهي مركبة في أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا هي بالأولى لاحد لها ، ونذكر منها قلا من جلّ بعد ما كتبناه فيما سبق في هذا التفسير مثل ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادي الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادي الموت فهو في الجنوب الشرقي من أمريكا ، وما دخله أحد إلامات لشدة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وما هي هذه الكنوز؟ هي [البورق] وقد كشفه رجل اسمه [هارون ونترس] كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادي بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه اذا مزج البورق بمادة كيميائية معاومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أيضا في طرف ذلك الوادي ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعوا بعض ذلك من الأمريكيين الجر ، وامتحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا في ذلك الوادي مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة في نقله ، لأنه يمت من يداخله ، وقد متروا وادي الموت سكة حديدية ، وأسست قرية للعمال في نفس الوادي ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما وطعم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع ما يلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذي بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، واذا كانت درجة الحرارة في الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهي في غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبردون هواه البناء بجعله يمرّ في رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادي كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهي تساوي نصف مليون جنيه ، واذا بيعت في بلاد الانجليز فانها تساوي ستة ملايين وستائة ألف جنيه ، هذا ما جاء في كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكي أن تتذكر ما تقدم في (سورة ابراهيم) إذ ذكرت لك هناك « البحر الميت » وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن في الأرض ، وقد جعلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وها هو وادي الموت الذي لا يصلح للحياة طهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : « والأرض فرشاها فعم الماهدون » وقوله تعالى هنا « والأرض مددناها الخ » نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فلها دن الجيلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها في غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التي يجعلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت في فلسطين ووادي الموت في أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس في حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فاذا جاء أهل العلم استخراجوا ما يشاءون من الكوز ،

هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حدّ سواء ، فالجاهل يحقر البحث في هذه العجائب والعالم هو الذي يعرف قيمتها ويصرف نفيس عمره في المعرفة كما تجشمت انكاثرا مشاق الحرب في الحرب العظمى ، وبلغت ما ربحها في البحار الميتة ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات في استخراج كنوز وادي الموت وهو البورق الكثير هناك .
أيها الذكي : اصرف عمرك كله في استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك في ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتي في وادي الموت والتي في البحار الميتة ، فهذه كنوز أقلّ من كنوز العلم ، ونفس ما نسكتبه الآن وأمثاله كما يبحث الناس على الأعلى يحفهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة في عمله والله هو الوليّ الجيد .

(٢) [غور الشيطان] : أما غور الشيطان فهو غور في أرض صخرية بولاية [اريزونا] من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهو كبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور إنما حصل بسبب جرم سماوي مزق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة ، فانتشرت الكسر والسحق حول الغور في أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زخج طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والاريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لخر بئر يصل إلى الجسم النيزكي الذي أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشدّ صلابة من الفولاذ ، لاتفعل فيه القنابل وترتد عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكي الذي ترى هذه الشركة أنه كبر عظيم ، يقدر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدر ثقله بليون طن ، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ما ذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ما ثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبعثر ما حوله

(٣) السلام على الجليد والفحم القطبي : إن العصر الجليدي الأخير الذي أصاب الجانب الشمالي الغربي من أوروبا : أعنى ارلندا واسكتلندا وأسوج ونيروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة و ١٨ ألف سنة ، ودام إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبي قد كشفت فيه طبقات غنية سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبي ، وبعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور في الطين الذي وجد مع الفحم الحجري ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارة وكانت الأشجار تغطيها عسورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة في آية : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » الخ والحمد لله رب العالمين .

ههنا ثلاث جواهر

- الجوهرة الأولى في بهجة العلم في قوله تعالى : « وأنبئنا فيها من كل زوج بهيج »
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : « تبصرة وذكري لسكل عبد منيب »
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : « ما ينظ من قول إلا ليه رقيب عتيد »

الجوهرة الأولى

بهجة العلم في قوله تعالى : وأنبئنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتي في ﴿سورة الذاريات﴾ الكلام على الذكور والأنثى من النبات ، وأن علماء النبات حاروا في تقسيمه ، فان قسموه بواسطة ما يرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهي الزروع المعروفة التي لاساق لها فان ذلك التقسيم لا يفيد وكيف يفيد الإبتحيد الأقسام تحديدا تاما ، وان قسموه بواسطة أنه نبات سنوي وغير سنوي كما سيأتي ، فهذا غير كاف ، لأن الرسم مثلا وحده بعضه سنوي وبعضه غير سنوي ، فاذن قدالتجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة وإناثها على شجرة أخرى كما سيأتي إيضاحه هناك ، وذلك ككشجر النخل ، فاذا كان بين النخلة والآخرى مسافة بعيدة ، فان الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والانسان لاعلم له بهذا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

حكاية

جاء في كتاب [الآيات البيئات ، في علم النبات] للاستاذ أحمد أفندي قدرى مانصه : « إن التلقيح في النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدة أمثلة نافعة لبيان هذه الطاهرة فكان منذ زمن طويل يستتبت شجرتان من الفستق الأثني ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولا يتحصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب المعلم [جوسيو] لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ما ينبغي في سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لا بد أن يكون يباريز أوفى أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع في البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرة في جينة تربية النباتات الكائنة بقرب [لوكسامبور] فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز وعلق نبات الاناث ، وهناك نبات يسمى [السبيريا سبرالس] أي الحزوني الذي هونبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنيية) ينبت بمقدار عظيم في الترع وفي القنوات ، ففي هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا في زمن تلقيحه ، وهي أن يكون النبات موضوعا في قاع الماء أي فاطنا فيه تماما ، وذكره وأماه تثبت مخاطما بعضها ببعض ، فالأزهار الاناث المحمولة على ذنبت زهرية طولها فثمان أو ثلاثة تقريرا ، وملدعة على هيئة حلزون تأتي على سطح الماء لكي تبتم ، وأما الأزهار الذكور فكل جلة منها تكون موضوعة في لففة غشائية وهي محمولة على ذنوب زهرية قصيرة جدا ، فاذا أتى زمن التلقيح تفتح وتمرق اللعافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهري العام ، وتأتي على سطح الماء فتبتم وتلقح الأزهار الاناث ، وبعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الاناث تحت الماء ، ثانيا بالتغاف الذنبتات الزهرية الحزونية التي تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى

أقول : وهذا من أعجب المحب ! ان هاتين الججيتين تفتح لما أبواب علوم كذيرة ، كيه لا وهذه شجرة الفستق كانت لاتمر رهي أثني ، ولكن لما طهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت ، إن هذه الدنيا جيلة وبديمة ، أليس هذا من أعجب الابداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لا يهلمون . وكبف يكون البشنيين نباتا في برك بلادنا ونحن نطرق إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت في البرك ولكنا نراه نضحك وهيئة أرهاره جيلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب في حال طفوليتنا أن هذه الرهرة الضاحكة المستبشرة هي الأثني ، وأن الدر كان قد ابتدوا مكانا قصيا في قع البركة ، وأمامهم وت اللقاح هم بدورهم سيخرجون

من أجدانهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقمات منتظرات قدومهم فيحصل
الالتحاق في أمن وأمان ، ولم يبق هؤلاء الذكوان من فائدة ، أما الاناث فاهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم
نمو الثمرات « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفي الأرض آيات للوقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .
« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فلتذكر في أمر السياسة ونقول :

إن الله الذي خلق النبات هو نفسه الذي خلق الأمم ، ولقد يخجل لي الآن أن في الشيرق عقولا وتلك
العقول كانت مغطاة في قاع بركة هذه الدنيا كما ان ذكوان البشنيين كانت ملتفة بأغشية في قاع بركة الماء
وهاهوذا اليوم أقبل الزمان الذي فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقى على العالم دروسا كما ظهرت ذكور
البشنيين في وقت الالتحاق وفعلت ما خلقت له وتمم الالتحاق .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه الحجائب نفهم قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » ،
وقوله : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » . وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

وإذا كان لقاح البشنيين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بد منه ، وهل اللقاح غير التعليم ؟
الله أكبر ان من أنواع اللقاح في الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح
العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يفلى كما تلى القدرور : « وربك يخلق ما يشاء ويخار وهو اللطيف
الخبير » انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢ م

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جل فلكك ، وحسن قولك ، كم تنفياً للال الأشجار ، ونجلس في الحقول ، ونأكل من العاكهة
والحب مالد وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الابداع ، كم من
ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولا ندري ما حكمها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ،
ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوربار ، ولا ندري لماذا كانت هذه الأوربار والأشعار ، نظرت
في كتاب [جبال الطبيعة] للورد أفبري صفحة ١٠٩ فالفيتة شرح هذا الموضوع شرحا واضحاً ، فاستبان
به أن الورب أعدته العناية الإلهية ، إما ليقى النبات من شرّ هاجم من خارج النبات ، وأما ليكون حافظة
لما في النبات من قوّة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أول الأمرين فذلك :

(١) ان من النبات ما تعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الورب وافية له .

(٢) ومنه ما تهاجه الحشرات فيكون ذلك الورب حصنا حصينا .

(٣) ومنه ما تحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الورب الكاسي للأوراق .

(٤) ومنه ما تلح عليه حرارة الشمس فيكون ظلّ تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم

الانسان من الحر بالملايس : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحرّ وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم

نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

ولو علم المسلم أن نعمة الملايس ليست خاصة به ، بل هناك ملايس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له

أيضا ومتاعا لخرّ صعبا ولدهش من تلك العناية التي تحير الأبواب . هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثاني فذلك أن من النبات ما ينبت في الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطير منه البخار ، فما

الذي يحفظ حياة النبات إذن اذا حرج بالبحر الشمس نقيّة الرطوبة في ذلك النبات ؟ أعدت الله تلك الأمايب

الشعرية الورية ، فهي المانعات من ذلك البحر فيعيش ذلك النبات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » .

أما المسلمون : لاجية لإحياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتي ، فليكن الانسان عالما أو متعلمها أو مستمعا أو محبا كما في الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

في قوله تعالى : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وقد ذكرنا هناك عشرة من آفات اللسان من [إحياء علوم الدين] للعالم رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا [جوهر التقوى] وأرجأنا بقية ما في الإحياء وما في كتاب [جوهر التقوى] إلى هذا المقام هنا في سورة ق فلنبداً بالكلام على ما في الإحياء فقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرّم مهمما كان مؤذيا كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتفسيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى العيبة ، قالت عائشة رضي الله عنها : (١) حاكيت انسانا فقال لي النبي ﷺ والله ما أحب أني حاكيت انسانا ولي كذا وكذا ، وقال ابن عباس في قوله تعالى : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : ان الصغيرة التسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة التفهيمه بذلك ، وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جهة الذنوب والكبائر ، وعن عبدالله بن زمة (٢) أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل ، وقال ﷺ (٣) « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيحى بكربه وعجمه فاذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيحى بكربه وعجمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم لهم فلا يأتيه » . وقال معاذ بن جبل (٤) قال النبي ﷺ : « من عبر أحاه بذنوب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل » وكل هذا

(١) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لي النبي ﷺ ما يسرني أني حاكيت انسانا ولي كذا وكذا أبو داود والترمذي وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمة : وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه .

(٣) حديث : ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيحى بكربه وعجمه فاذا جاء أغلق دونه . الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلوروياه في ثمانيات الحجيب من رواية أبي هذبه أحد الهالكين عن أس .

(٤) حديث معاذ بن جبل : من عبر أحاه بذنوب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل . اترمذي دون قوله قد

يرجع إلى استحقاق الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » أى لاستحقاقه استصغاراً فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مستخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جهة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه اذا تجبظ فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعه أو على صورته وخلقه اذا كان قصيراً ، أو ناقصاً لعب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية انتهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبي ﷺ (١) اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة ، وقال (٢) مطلقاً (كذا) الحديث بينكم أمانة ، وقال الحسن : ان من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ، ويروي أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً فقال لأبيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسر إلى حديثنا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدثني به فان من كتم سره كان الخيار اليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بني ولكن أحب أن لا نذلل لسانك بأحاديث السر ، قال فأنت معاوية فأخبرته ، فقال يا وليد أعتكك أبوك من رق الخطأ فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فان اللسان سباق الى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً ، وذلك من أمارات الدفاق قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال ﷺ (٣) « العدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الوأى مثل الدين أو أفضل » والوأى الوعد ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال : « انه كان صادق الوعد » قيل انه وعد انساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الانسان بل نسي فسبق اسماعيل اثنين وعشرين يوماً في انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر

تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(١) حديث : اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة ، أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث : الحديث بينكم أمانة ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسل .

(٣) حديث : العدة عطية الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والحرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسل .

(٤) حديث : الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية أبي طيبة مرسل ، وقال : الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الدبلى في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف .

الوفاء قال انه كان خطب الى ابنتي رجل من قر يش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لا أتق الله ثلث النفاق أشهدكم أني زوجته ابنتي (١) . وعن عبد الله بن أبي الحنساء قال : بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعده أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يافتي لقد شقت على " أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء ، وكان رسول الله ﷺ (٢) اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول ان شاء الله وهو الأولى ، ثم اذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفتي فهذا هو النفاق ، وقال أبوهريرة قال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم (٣) « ثلاث من كرت فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدثت كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اتمنن خان » . وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أربع من كرت فيه كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدهها : اذا حدثت كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يجتري من صورة النفاق أيضا كما يجتري من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحي بيدي فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم ؟ فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضعيفة (٦) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : ان لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيتها قال هي لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكماها موسى عليه

(١) حديث عبد الله بن أبي الحنساء : بايعت النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم فواعده أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يافتي قد شقت على " أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، رواه أبو داود ، واختلف في اسناده ، وقال ابن مهدي : ما أظن ابراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه .

(٢) حديث : كان اذا وعد وعدا قال عسى ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث أبي هريرة : ثلاث من كرت فيه فهو منافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث عبد الله بن عمرو : أربع من كرت فيه كان منافقا الحديث متفق عليه

(٥) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه جعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

(٦) حديث : انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

السلام فقالت حكمتي أن تردني شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلاً فليل أشح من صاحب الثمانين والرامي ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « ليس الحلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي » وفي لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال اسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال : إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار ، وقال أبو أمامة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : « كان يقال : ان من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب » وقال عليه السلام (٤) : « كبرت خيانه أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم (٥) « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (٦) ومرو رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأتقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فرب بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ، وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : ليس الحلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي ، وفي لفظ آخر : إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه ، أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالوا لم يفت .

(٢) حديث أبي بكر الصديق : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر ، وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن .

(٣) حديث أبي أمامة : ان الكذب باب من أبواب النفاق ، ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهى ضعيف جداً ، ويعنى عنه قوله ﷺ : ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقاً قال في كل منهما وإذا حدث كذب وهما في الصحيحين وقد تقدمتا في الآفة التي قبلها

(٤) حديث : كبرت خيانه أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق وأنت له كاذب ، البخارى في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث الثواس بن سمعان باسناد جيد

(٥) حديث ابن مسعود : لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، متفق عليه

(٦) حديث : مرو برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي ، وهكذا رويناه في أمالي ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .

(٧) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبو الشيخ في طبقات الأصهبانيين من حديث أبي هريرة ورويناه

(١) « إن التجار هم الفجار فقيل يا رسول الله أليس قد أحلّ الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالخلف العاجر والمسبل لإزاره ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكئة في قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبو ذرّ الغفاري (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يجهمهم الله : رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جارسوه يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطولوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنّوهم الله : التاجر ، أو البياع الخلاف ، والفقر الختال ، والبخيل المنان . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمتم معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد قال (٧) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يابني الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) يدعو فيقول في دعائه : اللهم طهر قلبي من النفاق ،

كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر واسناده ضعيف .

- (١) حديث : ان التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أجد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل .
- (٢) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب ، والمسبل لإزاره ، مسلم من حديث أبي ذرّ .
- (٣) حديث : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكئة في قلبه إلى يوم القيامة الترمذي والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس .
- (٤) حديث أبي ذرّ : ثلاثة يجهمهم الله الحديث ، وفيه ثلاثة يشنّوهم الله : التاجر أو البياع الخلاف أجد واللفظ له وفيه ابن الأجس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر باسناد جيد ، والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يفضهم الله : البياع الخلاف الحديث واسناده جيد .
- (٥) حديث : ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .
- (٦) حديث : رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمتم معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدة الجالس الحديث : البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث : طويل .
- (٧) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقصرا على الكذب ، وجعل السائل أبا الرداء .
- (٨) حديث أبي سعيد : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجني من الزنا ، ولساني من الكذب ، هكذا وقع

وفرجى من الزنا ، ولساني من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم وهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٢) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : أما انك لولم تفعل لكنت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا (٤) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الاشرار بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « إن العبد ليسكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من نآن ماجاه به . وقال أنس (٦) قال النبي ﷺ « تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وماهن ؟ قال اذا حدثت أحدكم فلا يكذب ، واذا وعد فلا يخلف ، واذا اتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) إن للشيطان كلالا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالتغيب ، وأما كلاله فالنوم . وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال (٨) : فام فينا رسول الله ﷺ كقياحي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يولونهم ثم يفسوا الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٩) « من حدثت عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى الله عليه وسلم

في نسخ الاحياء عن ابن سعيد ، وانما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا ، وزاد : وعمل من الرياء ، وعين من الخيانة ، واسناده ضعيف .

(١) حديث : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه : والامام الكذاب ، مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي

يا عبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : ان لم تفعل كنت عليك

كذبة ، رواه أبو داود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى

الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات

إلا أن الهرري لم يسمع من أبي هريرة .

(٣) حديث : لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا

رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة .

(٤) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكر

(٥) حديث ابن عمر : ان العبد يكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من نآن ماجاه به ، الترمذي

وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس : تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم في

المستدرک والحرائطي في . كرام الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين

ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث : ان للشيطان كلالا ولعوقا الحديث الطبراني وابونعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٨) حديث : خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفسوا الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى

من رواية ابن عمر عن عمر

(٩) حديث : من حدثت بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ، مسلم في مقدمة صحيحه من

حديث سمرة بن جندب .

(١) « من حلف على يمين بئيم ليقطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عزوجل وهو عليه غضبان » .
 وروى عن النبي ﷺ (٢) أنه ردّ شهادة رجل في كذبة كذبتها وقال ﷺ (٣) « كل خصلة يطبع أو يطوى
 عليها المسلم إلا الحياة والكذب » . وقالت عائشة رضی الله عنها (٤) : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب
 رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما
 ينجل من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عزوجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أيّ عبادك
 خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب
 فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام في مدح الصدق (٥) : أربع اذا كنت
 فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة . وقال
 أبو بكر رضی الله عنه (٦) في خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا
 عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما في الجنة . وقال معاذ قال لى ﷺ (٧) أوصيك
 بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

[وأما الآثار] فقد قال على رضی الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشرّ الدامة
 ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى .
 وقال عمر رضی الله عنه : أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسما ، فاذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فاذا
 اخترناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شيب قال : جلست أكتب
 كتابا فأثبت على حرف ان أنا كتبتة زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت عزمت على تركه فجزمت من جانب
 البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . وقال الشعبي : ما أدري أيهما أبعد

(١) حديث : من حلف على يمين ما تم ليقطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث
 ابن مسعود .

(٢) حديث : انه ردّ شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبه
 مرسله ، وموسى روى معمر عنه منا كبير قاله أحمد بن حنبل .

(٣) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الحياة والكذب ، ابن أبي شيبه في المصنف
 من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدى في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر
 أيضا وأبي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف
 أشبه بالصواب ، فله الدارقطى في العلل .

(٤) حديث : ما كان من خلق الله شيء أشدّ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان
 يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة
 أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره ، وقد رواه أبو الشيخ في
 الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٥) حديث : أربع اذا كنت فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم والحرائطى
 في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث أبي بكر : عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما في الجنة ، ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة ،
 وقد تقدم بعصه في أول هذا النوع .

(٧) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أو لعيم في الخلية وور تقدم .

غورا في النار الكذاب أو البخيل؟ وقال ابن السكك: ما أراي أوجر على ترك الكذب لأني انما أدهه أفة .
وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض
الكتب : مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فان كان صادقا صدق ، وان كان كاذبا قرضت شفتاه
بمقاريض من نار كلها قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج
أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله
ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد
المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة
فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب في
بعض المواطن خير من الصدق ، أرايت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فاتمى اليك
فقال أرايت فلانا؟ ما كنت قاتلا؟ أأنت تقول لم أراه وما تصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ،
فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك
القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان في الصدق سفك
دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، وهما كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات الين
أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يجتزمه ما أمكن ، لأنه اذا فتح باب
الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب
حراما في الأصل إلا للضرورة ، والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت (١) ماسمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل
يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم (٢) : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد
(٣) قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا الرجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما »
وروى عن أبي كاهل (٤) قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما
فقلت : مالك ولفلان؟ فقد سمعته يحسن عليك الشاء ، ثم لقيت الآخر فقلت له من ذلك حتى اصطلحا ،
ثم قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي ﷺ فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث ، مسلم وقد تقدم .

(٢) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ، الحديث متفق عليه وقد تقدم والذي
قبله عند مسلم بعض هذا .

(٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجائين يصلح
بينهما أحد بزياة فيه ، وهو عند الترمذي مختصرا وحسه .

(٤) حديث أبي كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : يا أبا كاهل
أصلح بين الناس ، رواه الطبراني ولم يصح .

أى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار (١) قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب ، قال أعدها وأقول لها ؟ قال لا جناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤبى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوجهن ، فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تنشدنى ، قال فأتى أنشدك الله ، قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أنسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأظلمهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأته ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتخرجت أن أ كذب أفأ كذب يا أبا عبد المؤمن ؟ قل نعم فأ كذبى ، فان كانت إحداكن لاتحب أحدنا فلا تحذنه بذلك ، فان أقل البيوت الذى بينى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب وعن النواس (٢) بن سمعان السكلاي قال قال رسول الله ﷺ « ما رأيتكم تهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لاحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحنة فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته برضاها . » وقال ثوبان « الكذب كله إثم إلا مانع به مسلما ، أودفع عنه ضررا » ، وقال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخر من السماء أحب إلى من أن أ كذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالجرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أوغيره . أما ماله فقل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنت وماسرت ، وقل صلى الله عليه وسلم (٣) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله » وذلك أن اظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وان كان كاذبا . وأما عرض غيره فبان يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وان كانت امرأته لاتطوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها فى الحال تطيبا لقلبها ، أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فيبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أ كذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب قال أعدها وأقول لها ؟ قال لا جناح عليك ، ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو الموطأ عن صفوان بن سليم بعضا من غير ذكر عطاء بن يسار

(٢) حديث النواس بن سمعان : ما رأيتكم تهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

(٣) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتمسوا هذه التاذورات التي نهى الله عنها . من لم بشيء منها فليستر بستر الله ، واسناده حسن .

الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فان شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل تخموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحتز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما اذا تعلق بفرض غيره فلا يجوز المسامحة حتى الغير والاضرار به ، وأكثير كذب الناس إنما هو لخطو أنفسهم ، ثم هولزادات المال والجاه ، ولأموال ليس فواتها محذورا ، حتى ان المرأة لتضحكى عن زوجها ما تفرجه ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء (١) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرة ، وأنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضرارها بذلك فهل على شىء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من تطعم بما لا يطعم ، أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة . ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وروايته الحديث الذى لا يتثبت إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لأدرى وهذا حرام . وما يلتحق بالنساء الصبيان ، فان الصبي اذا كان لا يرغب فى المكتب إلا بوعده أو وعيد ، أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم رويانا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب وبجانب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعنى عنه ، لأنه إنما أبيض بقصد الاصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالاصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وهذا لا يرتكب إلا للضرورة والضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ، ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شىء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض ما يكتفى الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الانسان الى الكذب ، فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون .

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضرة وأنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، والحديث متفق عليه ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق .

(٢) حديث : من تطعم بما لا يطعم ، وقال لى وليس له ، وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

(٣) حديث : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، متفق عليه من طرق ، وقد تقدم فى العلم .

ومثال التعريض ماروي أن مطرًا فادخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض ، وقال مارفعت جنبي منذ فارقت الأمير إلا مارفنى الله . وقال ابراهيم : اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل ان الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء : فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للإبهام ، وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتى به العمال الى أهلهم ، وما كان قد أتاهما بشيء : فقال كان عندى ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعندى بكر رضى الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذًا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيقا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لايقول لابنته أشتري لك سكرا بل يقول رأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لايتفق له ذلك ، وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية قولى له اطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبي اذا طلب فى المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعى الأصبع فيها وقولى ليس ههنا ، وهذا كله فى موضع الحاجة . فأما فى غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أنى على عمر بن عبد العزيز رجة الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فسكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لى أنى يائى اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقرير لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا عرض باطل لافائدة فيه ، نعم المعارض تباح لغرض خفيف كتطيب قلب الغير بالمزاح . كقوله ﷺ : « (١) لا يدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذى فى عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحمالك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيان الأنصارى مع عثمان فى قصة الضرير . إذ قال له أنه نعيان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحقيقى بتغيرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدى الى إيذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن إلا المطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال ﷺ : « (٢) لا يكمل للمرء الايمان حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ماجرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبت كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعدها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا

(١) حديث : لا يدخل الجنة عجوز ، وحديث : فى عين زوجك بياض ، وحديث : نحمالك على ولد البعير تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة .

(٢) حديث : لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أنى مليكة التمارى وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه وللدارقطنى فى المؤلف والمختلف من حديث أنى هريرة : لا يؤمن عبد الايمان كنه حتى يترك الكذب فى مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكرو .

(٣) حديث : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم فى الآفة التاسعة .

مرة واحدة كان كاذبا ، وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثله في الكثرة لا ياثم ، وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرّض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، وبما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهي ، وذلك منهى عنه وهو حرام ، وان لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد (١) قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ، ومعي نسوة . قالت فوالله ما وجدنا عنده قري إلا قدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحيت الجارية . فقلت لا تردى يد رسول الله ﷺ خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لا نشتهي . فقال لا تجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يا رسول الله : ان قالت إحدانا لشيء تشتهي لا أشتهي أيعذ ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبية كذبية » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . فيقال له لو مسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسلّ لسانه في الكذب عن حدّ اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه . فقالت كيف أنت يا بنيّ جلس الربيع . وقال أترضيتي ؟ قالت لا . قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : ان من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٢) ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل » ، وقال عليه السلام « (٣) من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس يعاقد بينهما أبدا » .

الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وماررد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة . فقال تعالى : - ولا يهتب بعضكم بعضا يجب أحذركم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - ، وقال عليه السلام « (٤) كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة

(١) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه . قال لا تجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير ، وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن في طبقات الاصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفقتنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فاذا كانت غير عائشة ممن تروّجها بعد خير فلأمانع من ذلك .

(٢) حديث : ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول على ما لم أقل ، البخاري ، من حديث وثالة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفري أن يرى عينيه ما لم تريا .

(٣) حديث : من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، البخاري من حديث ابن عباس .

(٤) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبي هريرة .

تناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه السلام « (١) لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجسوا ولا تدابروا ولا يفتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبي سعيد « (٢) قالا . قال رسول الله ﷺ إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا : فان الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس « (٣) قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم . فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يفتابون الناس ويقعون في أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر « (٤) أتيت النبي عليه الصلاة والسلام . فقلت علمني خيرا أنتفع به . فقال « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أخاك بشر حسن ، وإن أدبر فلا تغتابنه » ، وقال البراء « (٥) خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهم . فقال « ياعشر من آمن بإسائه ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم : فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام « من مات تائباً من الغيبة : فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال أنس « (٦) أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجيء . فيقول يا رسول الله ظلت صاماً فآذن لي لأفطر : فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل . فقال يا رسول الله فآذن من أهلك ظلتا صائمتين ، وانهما يستحيان أن يأتياك فآذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ فأعرض عنه ثم عاوده . فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقبيا فرح إليهما فأخبرهما فاستقاءتا : فقادت كل واحدة منهما علقه من دم فرجع الى النبي ﷺ فأخبره . فقال ، والنبي نفسى بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار » ، وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال ﷺ « (٧) اتنوني بهما فجاءتا

(١) حديث : أبي برزة لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا يفتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا متفق عليه من حديث : أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يفتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم في آداب الصحبة .

(٢) حديث : جابر وأبي سعيد إياكم والغيبة . فان الغيبة أشد من الزنا ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير

(٣) حديث : أنس مررت ليلة أسرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبو داود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح

(٤) حديث : سليم بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمني خيرا يفتبني الله به ، الحديث أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت والمفظله ولم يقل فيه أحد واذا أدبر فلا يغتابه ، وفي اسنادها ضعف

(٥) حديث : البراء ياعشر من آمن بإسائه ولم يؤمن بقلبه لاتغتابوا المسلمين ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد

(٦) حديث أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث في ذكر المرأتين اللتين اعتابتا في صيامهما فقادت كل واحدة منهما علقه من دم : ابن أبي

الدنيا في الصمت ، وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ، ويزيد ضعيف .

(٧) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرح فقال لاحدهما قبي فقامت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قبي فقامت كذلك . فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرنا على ما حرم الله عليهما جلست احدهما الى الأخرى فجعلنا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس (١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زينة بزنها الرجل ، وأرأى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « (٢) كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال إنهما يعذبان ، وما يعذبان في كبيرة : أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله ، فدعا بجر يده رطبة أوجر يدين فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغرس على قبر . وقال أما أنه سهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو ما لم يبسا » ، ولما رجم رسول الله ﷺ ماعز في الزنا . قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فرمى صلى الله عليه وسلم ، وهما معه بجيفة . فقال انهشأ منها . فقالا يارسول الله نهش جيفة . فقال ما أصبنا من أخيكما أنثن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يفتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة « (٤) من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه له في الآخرة ، وقيل له كاه ميتا كما أكلته حيا فيأكله فينضج ويكاح » ، وروى صرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فرهبما رجل كان محشا فترك ذلك فقالا لقد بقي فيه من شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا فصليا مع الناس خفاك في أنفسهما ما قالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما ان يقضيا الصيام ان كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال في - ويل لكل همزة لمزة - الهمزة الطعان في الناس ، والهمزة الذي يأكل لحوم الناس ، وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النجاسة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك وذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يصير أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وكان

الله عليهما الحديث أجد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المهم

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأرأى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبي الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث : جابر كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرة : أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الأدب بأساد جيد ، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النجاسة بدل العيبة وللطيلالسي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأجد والطبراني من حديث أبي بكره نحوه بأسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي ، قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فرمى بجيفة فقال انهشأ منها . الحديث أبو داود والدماسني من حديث أبي هريرة نحوه بأسناد جيد .

(٤) حديث : أنى هريره من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه له في الآخرة فيقال له كاه ميتا كما كتبه حيا ، الحديث ابن مردويه في التفسير صرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن اسحاق رواه بالنعنة .

الحسن يقول : « ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لاتعيب الناس بعيب هوفيك ، وحتى تبسداً بصلاح ذلك العيب فصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد الى الله من كان هكذا » ، وقال مالك بن دينار مرّة عيسى عليه السلام ومعه الخواريون بجيفة كلب . فقال الخواريون ما أنتن ربح هذا الكلب . فقال عليه الصلاة والسلام ما أشد بياض أسنانه كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ، ونههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله الا أحسنه ، وسمع علي بن الحسين رضی الله عنهما رجلا يفتاب آخر . فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس ، وقال عمر رضی الله عنه « عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكركم الناس فانه داء » : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسيبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته ، أما البدن فكذلك كرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبيطى أرهندي أو فاسق أو خسيس أو ساكف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يجتهد من الحجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يروى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الأكل ثوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكمّ طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لا غيبة في الدين لأنه ذم مآذنه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها . فقال هي في النار (٢) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لأهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التقيص ولا يحتاج اليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو معتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حدّ الغيبة ، وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به معتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أ رأيت ان كان في أخي ما أقوله ؟ قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٤) ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، لكن تؤذي جيرانها . فقال هي في النار ابن جبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة . قال فما خيرها اذا ، الحرايطي في مكارم الاخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسل ورويه في أمالي ابن شمعون هكذا .
- (٣) حديث هل تدرون ما الغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أحمره ، الحديث الطبراني بسند ضعيف .

فقالوا ما أعجزه . فقال ﷺ اغتبتم أنا كم قالوا يارسول الله قلنا ما فيه . قال ان قائم ما ليس فيه فقد بهتموه ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها (١) انها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة . فقالت انها قصيرة . فقال ﷺ اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافتك ، وكل في كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والافتك أن تقول ما بلمك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذلك الرجل الأسود : ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبتته ، وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الا عور . وقالت عائشة (٢) لا يفتان أحدكم أحدا فانى قلت لامرأة مرة وأما عند النبي صلى الله عليه وسلم « ان هذه لطوية الذليل . فقال لى : الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم » .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالصريح وانقل فيه كالتقول والاشارة والايحاء والغمز والهمز والسكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام : فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها (٣) دخلت علينا امرأة فلما ولت أو ماتت بيدي أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم في التصوير ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكمت امرأة قال (٤) ما يسرنى انى حاكيت انسا ولى كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالسكتابة فان القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترب به شئ من الأعدار المحوجة الى ذكره كما سأتى بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعريض لشخص معين إما حى وإماميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مرتبنا اليوم أو بعض من وأيناه اذا كان مخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما اذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ اذا كره من انسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لا يعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم ان كان منه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرادين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليطهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة

(١) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا ، والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى ، وإسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب .

(٢) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه لطوية الذليل فقال صلى الله عليه وسلم الفظي فلفظت بضعة من لحم ، ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لا يعرفها .

(٣) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أى قصيرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها . ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن محارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وبقايم ثقات .

(٤) حديث : ما يسرنى انى حاكيت ولى كذا وكذا تقدم فى الآفة الحادية عشرة .

(٥) حديث : كان اذا كره من انسان شيئا قل ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لا يهيد ، ورحاله رجال الصحيح .

والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبه فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مقتابا ومزائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بحيله يظن أنه من الصالحين المتعفين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ، ويضحك عليهم ، ويسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصني إليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساء في ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروِّح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي اظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاء في خلوته عقيب صلاته ولو كان يقيم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده ، وهو لجهله لا يدري انه قد تعرض لأعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهاوا ، ومن ذلك الاصفاء إلى الغيبة على سبيل التجب ، فانه انما يظهر التجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « المستمع أحد المغتابين » ، وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٢) أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لثوم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلاه الخبز فقال صلى الله عليه وسلم قد ائتممتما فقالا مانعلمه ، قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أفقص الرجل كما يقص الكلب (٣) انهشما من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالمستمع لا يخرج من إيم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام ، أو قطع الكلام بلام آخر فلم يفعل لزمه ، وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرج من الامم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكتفي في ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فان ذلك استحقار للذكور ، بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رهوس

(١) حديث : المستمع أحد المغتابين ، الطبراني من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٢) حديث : ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : ان فلانا لثوم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتممتما ، فقالا مانعلم ، فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه .

(٣) حديث : انهشما من هذه الميتة ، فله للرجلين اللذين قال أحدهما أفقص الرجل كما يقص الكلب ، تقدم قبل هذا بابني عشر حديثا

(٤) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو در على أن ينصره فز ينصره أذله الله يوم القيامة على رهوس الخلاق ، الطبراني من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن طهبة .

الخلائق» . وقال أبو الدرداء (١) قال رسول الله ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضا : (٢) « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة ، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطيل بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن الواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد في حقّ العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية [ولأول] أن يشنى العيظ ، وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشنى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشنى العيظ عند الغضب فيحتمل الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي ، فالحقد والغضب من الواعث العظيمة على الغيبة [الثاني] موافقة الأقران ، وبجملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس استنقلوه ونفروا عنه فيساعدتهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة في الصحبة ، وقد يغضب رفاقه فيحتاج إلى أن يعضب لعصم اظهارا للمساهمة في السراء والصراء فيخوض معهم في ذكروا العيوب والمساوي [الثالث] أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقيح حاله عند محتتم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليستشهد ويقتل : ما من عادتى الكذب فاني أخبرتكم بكذا وكذا من بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتى الكذب فاني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت [الرابع] أن يدب الى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشارك له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله [الخامس] ارادة التصنع والمباهة وهو أن يرفع نفسه بتقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ريك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تطلمبه فيقدح فيه لذلك [السادس] الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يتقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناهم عليه واكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو عبر العصب والحقد ، فان ذلك يستدعي جنابة من المغصوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق [السابع] اللعب والهرل والمطايبة وتزجية الوقت بالصحك فيذكر عيوب غيره بما يصحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والهج [الثامن] السخرية والاستهزاء استحقار له فان ذلك قد يجرى في الحصور ويجرى أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

(١) حديث ابى الدرداء : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ،

ابن أبى الدنيا في الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ : ردّ الله عن

وجهه البار يوم القيامة ، وفي رواية له : كان له حججانا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبراني

من رواية شهر بن حوشب عن سماء بنت يزيد .

الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر [الأول] أن تبعث من الدين داعية التعجب في انكار المسكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في اظهار تعجبه فصار به مغتابا وأما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريتيه وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل [الثاني] الرحمة وهو أن يعتم بسبب ما يدعى به فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ، ويليه النعم عن الجحيم من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاغتمام يمكن دون ذكر اسمه فيهبجه الشيطان على ذكر اسمه ليطلب به ثواب اغتمامه وترحمه [الثالث] الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان اذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويدكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، وهذه الثلاثة مما يغضب دركها على العلماء فصلا عن العوام ، فاهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في العيبة حاجات مخصوصة لامسوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره . روى عن عامر بن وائلة (١) أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لندينه ، ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم ، فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال ، وسأله أن يدعو له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال أما جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فأسأله يا رسول الله هل رأي أحرتها عن وقتها ، أو أسأت الوضوء لها ، أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر ، قال فأسأله يا رسول الله هل رأي قط أفطرت فيه ، أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال : والله ما رأيته يعطي سائلا ولا مسكيا قط ولا رأيته يفتق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤتيها البر والفاجر ، قال فأسأله هل رأي نقصت منها ، أو ما كست فيها طالها الذي يسألها ؟ فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوي الأخلاق كلها إنما تلج معجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمصادة سببها ، فلفحص عن سببها . وعلاج كفت اللسان عن العيبة على وجهين : أحدهما على الجلة ، والآخر على التفصيل ، أما على الجلة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيته بهذه الأحبار التي رويها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسانته يوم القيامة فانهما تنقل حسانه يوم القيامة إلى من اعتناه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك معرض لثقت الله عز وجل . ومشه عنده ناكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن ترحم كمة سيئته على كمة حسناته ، وربما نقل إليه سيئة واحدة ممن اعتناه فيحصل بها

(١) حديث - مر بن وائلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني لأبغض هذا في الله ، أريد نضوله ، وفيه : فقال قم فله خير منك ، رواه أحمد بإسناد صحيح .

الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. قال صلى الله عليه وسلم (١) « ما النار في اليأس بأسرع من العيبة في حسنات العبد ». وروى أن رجلا قال للحسن: بلعي أهلك تغتاني؟ فقال ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه ما خوف من ذلك، وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه، وذكر قوله صلى الله عليه وسلم (٢): « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ». ومهما وجد عيبا فبدني أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أصرا خلقيا فالذم للخالق، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح لوجه، قال ما كان خلقى وجهي إلى فأحسنه. وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثرن نفسه بأعظم العيوب فإن تلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بعيبه كتألمه عيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يعتاب فبدني أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، فهذه معالجات جليلة، أما التفصيل فهو أن يطر في السب الناعث له على العيبة، فإن علاج العلة يقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب. أما العصب فيعالجه مما سيأتي في كتاب [آفات العصب] وهو أن يقول: انى إذا أمضيت غضبي عليه فعلى الله تعالى يمضى غضبه على بسبب العيبة إذ هانى عنها فاجترأت على نهيه، واستخفت بزجره، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن لهنم بابا لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى ». وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ». وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رهوس الخلاق حتى يحيره في أى الحور شاء ». وفي بعض الكتب المترلة على بعض الدين: « يا ابن آدم أد كرتى حين تعصب أد كرك حين أعضب فلا أحقك فيمن أحق ». وأما الموافقة فأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يرجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء، بل بدني أن تعصب لله أيضا على رفقاتك إذا ذكروه بالسوء فاهم عصوا ربك بأغضب الذنوب وهي العيبة. وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الحياة حيث يستعنى عن ذكر الغير فعالجه بأن تعرف أن التعرض لملت الخالق أشد من التعرض لملت المخلوقين، وأنت بالعيب متعرض لسخط الله يقيلا ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتحسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق بسببه وهذا عاية الجهل والحدلان، وأما عدرك كقولك إن أكات الحرام فعلى يأكله، وإن قلت مال السلطان فعلى يقله، فهذا جهل لأدك تعتذر بالاقضاء عن لا يجوز

(١) حديث: ما النار في اليأس بأسرع من العيبة في حسنات العبد، لم أجده أصلا.

(٢) حديث: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، البرار من حديث أس بسد ضعيف.

(٣) حديث: إن لهنم بابا لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله، الرار وابن الدنيا وابن عدى والسبق واللساني من حديث أس عاس بسد ضعيف.

(٤) حديث: من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه، أو موصور الديلمي في مسدد الفردوس من حديث سهل بن سعد بسد ضعيف، وروياه في الأربعين السلدانية لساني.

(٥) حديث: من كظم غيظه وهو قادر على أن يعده، الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معادس أس.

الاقتماد به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كأننا من كان ولودخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقه لسفه عقلك ، ففما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغاوتك ، وكنت كالشاة تنظر الى العزى تردى نفسها من قمة الجبل فهي أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعدو وصرحت بالعدو . وقالت العنزأ كيس منى وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أما فعل لكنت تصحك من جهلها ، وحالك مثل حاطها ، ثم لانجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة ونزكية النفس بزياة العضل بأن تقدح في غيرك . فينبغي أن تعلم أنك بماذ كرت به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثب الناس فتسكون قد بعث ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولوحصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكواولا يعنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عناديين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت في الدنيا معدبا بالحسد فاقنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت حاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا حاسرا في الآخرة لتجمع بين السكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لاتضره غيبتك وتضرك وتفعه إذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تفعك ، وقد جعلت الى خبث الحسد جهل الجاقة ، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل .

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعد الملائكة واليبين عليهم الصلاة والسلام فلو تمسكت في حسرتك وجناتك وخجلتك وخزيتك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق الى النار لأدهشك ذلك عن إجزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فانك سخرت به عند هر قليل ، وعرصت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ، ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيتك ومسرورا بصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ، وأما الرجعة له على إنه فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس فأصلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لائم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما إذ حط أجرك ، ونقصت من حسناتك ، وكذلك العضب لله تعالى لا يوجب العيبة ، وإنما الشيطان - ب اليك العيبة ليحبط أحر عصمك ، وتصير معرصة لقت الله عروحل بالعبية ، وأما التجب اذا أخرجك الى العيبة فتحب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك وديك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهر أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتجب ستر أحيك . فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق مهدد الأمور التي هي من أبواب الايمان من قوى إيمانه بجميع ذلك اسكت اساه عن العيبة لا محلة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء التول فكما يحرم عليك أن تحدث عريك لسانك بمساوي العير فليس لك أن تحدث نفسك وسوء الظن بأخيك ، وأنت عي به الاستدانة تلج وحكمه على غيره بسوءه ، فأما الحواطر وحديث النفس فهو معفو عنه من الشك أيضا معفو عنه . وان كان يهوى عنه أن يظن ، والذن عارة عما تركز اليه النفس ويميل اليه القلب . فتدق الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا حمتوا كثيرا من

الظن إن بعض الظن إثم» وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله تعالى فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك ببيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنيك ثم وقع في قلبك فإثم الشيطان يلقى عليك ، فيدعي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يحز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استسكك فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدث ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تغمض بالخمر ومجها ، وما شربها أو جعل عليه قهرا فسلك ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال ﷺ « (١) إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وإن يظن به ظن السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فيدعي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مآرأته منه يحتمل الحير والنسر ، فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نمورا ما ، ويستقله ويفتر عن مراعاته وتقديره وإكراهه والاختتام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال ﷺ « (٢) ثلاث في المؤمن ، وله منهن مخرج » فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أى لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لافي القلب ولا في الجوارح . أما في القلب فبتغيره الى الغيرة والكرهية ، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على اقلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى اليه أن هدامن فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن يظن نور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بفرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أحبرك به عدل فإل طمك الى تصديقه كنت معذورا لانيك لو كذبتك لست جانيا على هذا العدل إذ طفت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء اظن . فلا يدعي أن تحسن الظن بواحد ، وتسمى بالآخر ، نعم يدعي أن تبحث هل بينها عداوة ومحاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه فقد ردت الشرع (٣) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، وردت شهادة العدو فك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك المدكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكل أمره محجوبا عني ، وقد بقي كما كان لم يكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل طاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المدكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساوئهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فان المعتاد فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكثروا بتناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فيدعي أن تزيد في مراعاته وتدعوله بالخبر فان ذلك يعيط الشيطان ويدفعه عليك فلا ياتي اليك الخطر السوء خيفة من استغالك بالدعاء

- (١) حديث : ان الله حرم من المسلم دمه وماله . وإن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولان ماجه نحوه من حديث ابن عمر .
- (٢) حديث : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثه بن النعمان بسند ضعيف
- (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة ، وضعفه لا تجوز شهادة حائ ولا حنة ولا مجرد حيا ولا ذى غمير لأخيه ، وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ، ولأبي داود وابن ماجه ناسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الحاش والحاش وذى امر على أخيه

الرعاية ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فاصحه في السر ولا يخدمك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تظنه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ليظن اليك بعين التعظيم ، وتظن اليه بعين الاستعثار ، وترفع عليه بآداء الوعظ ، وليسكن قصدك تخلصه من الائم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك ، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أتت فعلت ذلك كنت قد جعت بين أجر الوعظ وأجر التلم بمصيبتك ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فان القلب لا يقع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهي عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبه وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهمك السستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهي ستة أمور [الأول] الظلم فان من ذكر قاصيا بالظلم والحياة وأخذ الرشوة كان مقابا عاصيا ان لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضى فله أن ينظلم الى السلطان ويفسبه الى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم « (١) إن لصاحب الحق مقالا » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) مثل الغي ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٣) لى الواجد يحمل عقوبته وعرضه » [الثاني] الاستعانة على تغيير للمسكورد العاصي الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب الى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فذء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الحجر بالشام كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم نزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتاب ولم يرد ذلك عمر بمن أبلعه غيبة إذ كان قصده أن ينسكرك عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما اباحة هذا ما قصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما [الثالث] الاستفتاء : كما يقول للمنى ظلمى أبى أوزر حنى أو أخى فكيف طريقي في الخلاص ، والأسلم التعرض بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين متاح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت « (٤) لى لى صلى الله عليه وسلم » إن أبا سفيان رحل شحج لا يعطى ما يكفنى أنا وولدى أنا أخذ من غير علمه ؟ فقال خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » ندكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء [الرابع] تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفقهه ، فلك أن تكشف له بدعته وفقهه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سرية البدعة والسق لاغيره ، وذلك موضع العور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ،

(١) حديث : لصاحب الحق مقال : متفق عليه من حديث نى هريرة

(٢) حديث : مثل الغي ظلم : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث : لى الواجد يحمل عقوبته ، أوردوا ما سئى وابن ماجه من حديث الثريد

باسناد صحيح

(٤) حديث : ان هذا قلت ان أبا سفيان رحل شحج : متفق عليه من حديث عائشة

ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا رقد عرفتم المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعبث آخر فإلك أن تذكر ذلك فإن في سكوتك ضرر المشتري ، وفي ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكى اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا ، وكذلك المستشار في التزوج وإيداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقعة . فإن علم أنه يترك التزوج بمجرد قوله : لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وان علم انه لا يزوج الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله ﷺ « (١) أتزعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذرهم الناس » وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الامام الجائر ، والمتدع ، والمجاهر بفسقه . [الخامس] أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص [السادس] أن يكون مجاهرا بالفسق كالخث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يظهر به بحيث لا يستسكف من أن يذكر له ولا يكرهه أن يذكر به فاذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٢) من أتى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له » ، وقال عمر رضى الله عنه « ليس لفاجر حرمة » وأراد به المجاهر بفسقه دون المستر إذ المستر لا بد من مراعاة حرمة ، وقال الصادق بن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قل لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والامام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يتصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الخبز . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغي أن يستحل وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرأى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « (٣) كفارة من اغتابه أن تستغفر له » ، وقال مجاهد « كفارة أكلك لحم أخيك

(١) حديث : أتزعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذرهم الناس ، الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت

(٢) حديث : من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث كفارة من اغتابه أن تستغفر له ، ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من

أن تثنى عليه وتدعوه بخير» ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشى إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح وقول القائل العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في العرض حد القذف وتبث المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « (١) من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسنة فان لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل قد اغتبتها فاستحلها ، فإذا لا بد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنة . فان قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة ، وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب لا أحلل من طمعتني ، وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحله الله ان الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحل ما حرم الله أبداً . فان قلت فامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن . فقول المراد به العفو عن المظلمة لأن ينقلب الحرام حلالاً ، ومأقوله ابن سيرين حسن في التحليل قبل العيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فان قلت فامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « (٢) أيجز أحدكم أن يكون كأتى ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فامعنى الحث عليه . فنقول معناه انى لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أحاصمه والا فلا تصير العيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب الا أنه وعدوله العزم على الوفاء بأن لا يخصم . فان رجع وخصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة من مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن « اذا جنت الأثم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس في الدنيا » ، وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « (٣) يا جبريل ما هذا العفو ، فقال « ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من ظلمك وتعطي من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلاً له ان فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهيت إلى من حسنتك فأردت أن أكافئك عليها فعذرتنى فإني لا أفدر أن أكافئك على التمام .

حديث أنس بسند ضعيف

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليستحلها ، الحديث متفق عليه من

حديث أنى هريرة

(٢) حديث أيجز أحدكم أن يكون كأتى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى تصدقت بعرضى على الناس ، البرزبان السبي . اليوم والليلية والعتيبي في المعفو عن حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثوبت سرسلا عند ذكر أنى ضمضم في الصحابة . قلت ونعم هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البرزبان والعتيبي .

(٣) حديث نزول حد العفو الآية فتلى يا جبريل ما هذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من ظلمك وآتى من حرمك ، تقدم في رخصة أنس .

الآفة السادسة عشرة : النيمة

قال الله تعالى : « هماز شاء بنيم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم » . قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتفم الحديث ، وأشار به الى أن كل من لم يكتفم الحديث ومشى بالنيمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعوى ، وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : « جمالة الخطب » قيل انها كانت نمامة جمالة للحديث ، وقال تعالى « فاختارهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ (١) لا يدخل الجنة نمام ، وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » ، والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ (٢) أحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم الى الله المشامون بالنيمة . المفرقون بين الاخوان . الملتمسون للبراء العورات ، وقال ﷺ (٣) ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشامون بالنيمة . المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب . وقال أبو ذر (٤) قال رسول الله ﷺ « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شاته الله بها في الناريوم القيامة . وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا : كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار » . وقال أبو هريرة (٦) قال رسول الله ﷺ « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال ان ثبت عذاب القبر من النيمة ، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ (٧) ان الله لما خلق الجنة قال

- (١) حديث : لا يدخل الجنة نمام ، وفي حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .
- (٢) حديث أبي هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الطبراني في الأوسط والصغير ، وتقدم في آداب الصحبة .
- (٣) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشامون بالنيمة : الحديث ، أجد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .
- (٤) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شاته الله بها في النار يوم القيامة ، ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في كرام الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث .
- (٥) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار ، ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلمط آخر صرفوعا من حديثه وقد تقدم .
- (٦) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أجد وابن أبي الدنيا ، وفي روايه أجد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا من الاسناد .
- (٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت سعد من دخلني . قال الجبار وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية . فذكر منها ولاقتات ، وهو النمام لم أحده هكذا بجماله . ولأجد لا يدخل الجنة عاق لولديه ولاديوت ، وللسائي من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن نجر ، وللشيعيين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث حبر من مطعم : لا يدخل الجنة قطع ، و ذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله

لها تكلمى . فقالت سعد من دخلى . فقال الجبار جل جلاله ، وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرّ على الزنا ، ولا قاتل . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطي ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول على عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به . وروى كعب الأحمس أن بنى اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فأسقوا فأوحى الله تعالى اليه انى لأستجيب لك ولن معك وفيكم نمام قد أصرّ على النجيمة . فقال موسى يارب من هو دلتى عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى أنها كم عن النجيمة وأكون نماما فتباؤا جميعا فسقوا ، ويقال اتبع رجل حكيما سبعة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه . قال انى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أنقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحرّ منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه ، وعن الينيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرّ من النار ، والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام اذبان أمره أذل من الينيم

بيان حد النجيمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النجيمة إنما يطلق في الاكثر على من ينمّ قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النجيمة مختصة به بل حدّها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المقول عنه أو المقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عبثا وقصا في المقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النجيمة إفساء السر وهتك السر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبى أن يسكت عنه الاماى حكايته فأذلة لمسلم أو دفع لعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحن المشهود له ، فأما اذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نجيمة وافشاء للسر . فان كان ما ينمّ به نقضا وعبثا في المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنجيمة . فالباعث على النجيمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفريخ بالحديث ، والحوض في الفضول والباطل ، وكل من حلت اليه النجيمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقاك كذا . أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في مملأة عدوك أو تضييق حالك أو ما يحرى مجراه فعليه ستة أمور [الأول] أن لا يصدق له لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » [الثاني] أن ينهيه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » [الثالث] أن يعضه في الله تعالى فانه بغيبض عند الله تعالى ، ويجب بعض من يغضه الله تعالى [الرابع] أن لا تظن بأخيك العاتب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » [الخامس] أن لا يملك ما يحكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » [السادس] أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكى نجيته . فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به مماما ومعتابا وتكون قد آتيت ماعنه نهيت ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل وسكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرا في أمرك فان كنت كادبا فأنت من أهل هذه الآية « ان جاءكم فاسق بنبأ

الجنة قال لها تكلمى تزبى فتزيفت . فقالت طوبى لمن دخلى ورضى عنه إلهى . فقال الله عز

وجل : لا سلك مخنث ولا نائمة

فتبينوا» وإن كنت صادقا فأت من أهل هذه الآية «همز مشاء بنميم» وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو يأمر المؤمنين لأعود إليه أبدا ، وذكر أن حكيميا من الحكماء زاره بعض اخواه فأخبره بنجر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنابيات : بغضت أخى الى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمانة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فى وقفت كذا وكذا . فقال الرجل ما فعلت ولاقت . فقال سليمان ان الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى لا يكون الممام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام . وقال الحسن . « من نمم إليك نم عليك » ، وهذا إشارة الى أن الممام يذنب أن يغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا يغض وهو لا ينفك عن الكذب ، والغيبة ، والعدو ، والحياة ، والغفل ، والحسد ، والفساق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . وقال تعالى : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغفون فى الأرض بغير الحق » ، والممام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « (١) ان من شرار الناس ، من اتقاه الناس لشره » ، والممام منهم ، وقال « (٢) لا يدخل الجنة قاطع » قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو الممام . وقيل : قاطع الرحم » ، وروى عن على رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل . فقال له ياهذا نحن نسأل عما قلت . فان كنت صادقا مقتتاك ، وان كنت كاذبا عاقبتك ، وان شئت أن ثقيلك أفناك . فقال ألقى يأمر المؤمنين ، وقيل لمحمد بن كعب القرطبي : أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وافشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ما طنكم يقوم بمحمد الصدق من كل طائفة من الناس الامنهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء فأخبره بكن قوله وأجازه فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لثما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية هى النجاسة إذا ما إذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « (٣) الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة » . يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام . وقال انى مكلمك يأمر المؤمنين بكلام فاحتمله ، وان كرهته فان وراءه ماتح ان قبلته . فقال قل : فقال يأمر المؤمنين انه قد اكتفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : حافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما تمك امة عليه ، ولا تصخ اليهم فيما استحفظك الله إياه : فاهم لن يألوا فى الأمة خسفا ، وفى الأمانة تضديعا ، والاعراض قطعا واتها كما أعلى قرهم النجى والنجمة ، وأجل وسائلهم العيبة

(١) حديث : ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث : لا يدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جابر بن مطعم

(٣) حديث : الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو

لغير رشدة أو فيه شىء منها ، وقال له أسانيد هدا أمسها ، قت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن ظهرى فى الدركرة مسكر الرواية قال ، والحديث لأصل له ، وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الضبرانى بلط لا يسعى على الناس الا الولد بنى والامن فيه عرق م ، وزاد بين سهل

وبن بلال بن أبى بردة أما الوليد القرشى

والوقية ، وأنت مسئول عما أجموا ، وإسوا المسئولين عما أجمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما أتمنتك خاليا * فخت وأما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا * بمنزلة بين الحياة والامم

وقال رجل لعمر بن عبيد أن الأسوارى ما يزال يذكرك في قصصه بشر . فقال له عمر ويا هذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث قلت الينا حديثه ولا أدبت حتى حين أعلمتني عن أخي ما أكره ، ولكن أعلمه ان الموت يعننا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة الى صاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يجم يحمله على أخذ كل كثرته فوقع على ظهرها : السعاة قبيحة وان كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى الصبح خسرا فك فيها أفضل من الرمح ، ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيتك لقال لك بما يقتضيه فعلك في ملك . فتوقى ياملعون العيب فان الله أعلم بالعيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعي لعنه الله . وقال لقمان لابنه يابى أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تنزل سيدا ، إسقط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والاشيم ، واحفظ اخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليسكن اخوانك من إذا فارقهم وفارقوك لم يبعهم ولم يعسوك ، وقال بعضهم : النعمة منية على الكذب ، والحسد ، والماق ، وهي أثافي الذل ، وقال بعضهم لوصح ما نقله الغمام اليك لكان هو المجترى بالشتم عليك ، والمقول عنه أولى بجهلك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة ففسر الغمام عظيم ينبنى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للشترى ما فيه عيب إلا اللئيمة . قال قد رضيت فاشتره فكشك العلامة أياما ثم قال لزوجة مولاه : ان سيدى لا يحبك ، وهو يريد أن ينسرى عليك فخذى موسى واحلقى من شعر قصاه عند نومه شهرات حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت حليلا وتريد أن تقتلك فتدوم لها حتى تعرف ذلك ، فنارم لها . فذعب المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله . فقام اليها فقتلها فذاع أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلمما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين المنافق . قال عمار بن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبو هريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجردون من شر عبادة الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ، وفي لفظ آخر : « الذى يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لا يدعى لذى لوجهين أن يكون أميا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت في التوراة طت لاسنة والرجل مع صاحبه بشنتين مخلمتين بهلك الله تعالى

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة .

في كتاب لأدب المفرد وأبو داود ؛ مع حسن

(٢) حديث أبي هريرة تجردون من شر عبادة الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلغة

تجد من شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند ابن أبي الحديد بلغة نصف

يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال ﷺ « (١) أبغض خلقه الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لآخوانهم في صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذادعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء ، واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا . » وقال ابن مسعود لا يكون أحدكم لإمعة قالوا وما الامعة ؟ قال الذي يجرى مع كل ريح ، وانفقوا على أن ملاقاته الاثين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جللتها ، وقدروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه . فقال يا أمير المؤمنين انه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وماحد ذلك ؟ فأقول اذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لاتنتهي الى حد الاخوة ادلوثتحقت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كذا ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذولسانين وهو شر من النخيمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذولسانين ، وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بان ينصره ، وكذلك اذا أنى على كل واحد منهما في معاداته ، وكذلك اذا أنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذولسانين بل ينبغي أن يسكت أو يئى على المحق من المتعادين ويئى عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٢) إنا ندخل على أمرائنا فقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كما نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ وهذا نفاق مهمما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الشاء عليه فلواستغنى عن الدخول ، ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه الى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لوقع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والعنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله ﷺ « (٣) حب المال والجاه يثبتان المفاق فى القلب كما يثبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأسماء والى مرعاتهم ومرأ آتهم . فأما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور . فان اتقاء الشر جائر . قال أبو البرداء رضى الله عنه « إنا لسكشر فى وجوه أقوام ، وان قلوبنا لثلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٤) استأذن رجل على رسول الله ﷺ . فقال اتذنبوا له فبئس رجل العشييرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يا رسول الله قات فيه ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال يا عائشة ان شر الناس الذى يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى الكشر والتبسم . فاما الشاء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو كراه يباح الكذب بشله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لا يجوز

(١) حديث أبغض خلقه الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء

لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل

(٢) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره . قال كما نعد

ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبرانى من طرق

(٣) حديث : حب الجاه والمال يثبتان المفاق فى القلب كما يثبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمى فى مسند

الفرزدوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال حب العمام . وقال العشم كان البقل

(٤) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اتذنبوا له فبئس رجل

العشييرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذى يكرم اتقاء شره ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

النساء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل يذنبى أن يذكره فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقية وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واقتنان في الممدوح [فأما المادح : فالأولى] أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الاشهاد بعنه الله يوم القيامة يعثر بلسانه [الثانية] انه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصبر به سرايبا منافقا [الثالثة] انه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، روى (١) أن رجلا مدح رجلا عند النبي ﷺ . فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال ان كان أحدكم لا بد ما دحا آياه فليقل أحسب فلانا ولا أركى على الله أحدا حسيده ان كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تنطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقوله انه متق وورع وزاهد وخير وما يحرى مجراه ، فأما اذا قال رأيت يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفي ، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسأرت معه . قال لا . قال أحاطته في المباينة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه [الرابعة] انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ « (٢) ان الله تعالى يعضب إذا مدح العاسق » . وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم العاسق يذنب أن يذم ليقيم ولا يمدح ليفرح [وأما الممدوح : فيضره من وجهين] أحدهما . أنه يحدث فيه كرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر . فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا به خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها من فقه . قال خشيت أن يخاطب قلبك منها شيء فأحبت أن أطأى منك [الثانى] هو أنه إذا ثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما اذا انطلقت الألسن بالشاء عليه طعن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال ﷺ (٣) : « اذا مدحت أحاك في وجهه فكأما أمرت على حلقه موسى وميضا » وقال أيضا لمن مدح رجلا (٤) « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف

(١) حديث : ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك

متفق عليه من حديث أبي بكر بن عمار ، وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

(٢) حديث : ان الله يعصب ادمدح العاسق ان أبى الدنيا في الصمت واليهيق في الشعب من حديث

أس ، وميه أبو خلف حادم أس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عسدى : بلفظ ادمدح

العاسق غضب الرب واهتر العرش . قل الذهبي في الميزان مسكر وقد تقدم في آداب الكسب

(٣) حديث : اذا مدحت أحاك في وجهه فكأما أمرت على حلقه موسى وميضا ، ان المنار في الزهد

والرقاتي من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٤) حديث : عقرت الرجل عقرك الله ، قاله لمن مدح رجلا ، له أصل .

« ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي » . وقال زياد بن أبي مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراهى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لومشى رجل إلى رجل يسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح ، وذلك لأن المذبوح هو الذى يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، ولأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به ، فان سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والمدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال (٢) : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال في عمر (٣) « لولم أبعث لبعثت يا عمر » ، وأى ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل ربيته صلى الله عليه وسلم (٤) « أنا سيد ولد آدم ولاخر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالترب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يتفخر بقبوله إياه وبه يفرح لابتدائه على بعض رعائيه ، وتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٥) « وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لنى آدم جلساء من الملائكة ، فاذا ذكر الرجل المسلم أحاه المسلم تخير قالت الملائكة ولك بمثل ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نكاحك واحمد الله الذى ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجومنه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يحرى على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم (٦) : « احشوا التراب في وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة :

(١) حديث : لومشى رجل إلى رجل يسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه ، لم أجده أيضا .

(٢) حديث : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم في العلم .

(٣) حديث : لولم أبعث لبعثت يا عمر ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وهو منسك ، والعراف حديث عقبة بن عامر : « لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذى وحسنه .

(٤) حديث : أنا سيد ولد آدم ولاخر ، الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى والخاتم من حديث جابر وقل صحيح الاسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولاخر » . وسلم من حديث أبي هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٥) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

(٦) حديث : احشوا في وجوه المادحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

« لا يفر المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم ان هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم ان عبدك هذا تقرب إلى بيمتك ، وأنا أشهدك على مقتته . وقال علي رضي الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفر لي ما لا يعامون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعاني خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال « أهلكني وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ، وكان قد بانغ أنه يقع فيه ، فقال : أما دون ما قلت ، وفوق ما في نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأموال الدين فلا يقدر على متعة ولا ينزل في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله العلي يعفوه عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة : قال النبي ﷺ (١) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما (٢) : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجمعتي لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى » ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله ﷺ قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجع . وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم اعنقنا من النار ، وكان يقول : العنق يكون بعد الورد ، وكانوا يستجبرون من النار ويتعوذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعاني ممن تصيبه شفاعتة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يعنى المؤمنين عن شفاعتة محمد وتكون شفاعتة للذين من المسلمين . وقال ابراهيم إذا قال الرجل للرجل يا حار يا خنزير قيل له يوم القيامة حارار أبتني خلقته خنزيرا رأيتني خلقته . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان أحدكم يشرك حتى يشرك بكبه فيقول لولاه لسرقا الميلة ، وقال عمر رضي الله عنه (٤) قال رسول الله ﷺ ان الله تعالى ينهكم أن تحلفوا بأبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أولي صحت ، قال عمر رضي الله عنه فوائده ما حافت بها منذ سمعتها . وفي ﷺ (٥) « لا تساموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : لا يقول أحدكم عدي ولا أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامي وجاريتي ، وفتاى وفتاى ، ولا يقول المماوك ربي ولا ربي ، وليقل سيدي وسيدي ، فكلكم عند الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ (٦) : « لا تقولوا للفاسق سيدنا

(١) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبو دارود والسائي في الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجمعتي لله عدلا ؟ بل ماشاء الله وحده ، السائي في الكبرى بإسناد حسن ، وابن ماجه .

(٣) حديث : خطب رجل عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدي بن حاتم .

(٤) حديث عمر : ان الله ينهكم أن تحلفوا بأبائكم ، متفق عليه .

(٥) حديث : لا تساموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم . متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٦) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا . الحديث يورد من حديث يزيد بن أسد صحيح .

فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم . وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « من قال أنا بريء من الاسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ، وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافق لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا يفتك عن الخطر ، فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغتم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى العنيتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة نزل حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامي يفرح بالحوض في العلم إذ الشيطان يخيل إليه انك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كافر وهو لا يدري ، وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سواء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاصافة اليه عامي ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٤) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يا رسول الله من أبي ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذي تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفى الجنة أنا أم في النار ؟ فقال لا بل في النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا ، فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضيا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رحمتك الله ، انك ماعلمت لموهق ، وفي الحديث (٥) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، واصاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى

(١) حديث : من قال أنا بريء من الاسلام ، فان كان صادقا فهو كما قال ، الحديث المسائي وان ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٢) حديث : من صمت نجا . الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

(٣) حديث : ذروني ما تركتكم وما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، الحديث منفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يربأحتي أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به . الحديث منفق عليه منسرا - إلى سؤال عبد الله بن حذافة وفرل عمر . واسلم من حديث أبي موسى : دام آخر فقال مر أي ؟ فقال أبوك سالم مزلي شديدة .

(٥) حديث : النهي عن قيل وقال ، واصاعة المال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث العبرة ابن شعيب .

الله عليه وسلم (١) « يوشك الناس يساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تحتتموا السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال جابر (٢) : « ما زلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فان اتبعته فلانساأني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثاً « قال هذا فراق بيني وبينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ، ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها ، وضع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة ، فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى ما أردته من كتاب [إحياء علوم الدين] للإمام الغزالي ، والحمد لله رب العالمين .

والنشرع الآن في ذكر ما جاء في كتابي [جوهر التقوى] فقد جاء فيه في صفحة ١٢٩ وما بعدها تحت العنوان الآتي مانصه :

الحسد

الحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن تمى مثل نعمة غيره فهو العابط والمنافس ، وهوليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس وبخلها ، فينور الحسد في النفس على مقتضى الأسباب .
فن كره امرأً ثقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب سقاه ، وحرمت عليه حلاوته ، ومن لم تلن شرته دامت حسرته ، وكمن امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد في قلب قرينه ، ويأبى إلا التعزز عليه فلا يخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهراً ، وفوقهم قاهراً ، ذلك بسبب الكبر الذي في نفسه وان لم يتعاطموا عليه . وكمن فتي آثار الحسد في قلبه ، واشتعل زيرانه ، وأهلب سعيره ، تجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تنابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوباته بتعديه ، أو فوات مطلوب يرتجيه ، إذا ذاق عاره نعمة من موضراً مستهم ، يساقسونه على مصابه ، ويزاجونه على سلوك سبيله . كأرض يملكها أو عرس ياتيها ، أو درجة يردها ، أو نعمة تيسر . ومن أسس من يحسد حبه لرياسة ، ويخشاه من وهن سلطانه . وارتجس بنيانه ، وتقوي عزه وإن تلاله ، وآحرون خذت نفوسهم ، ودرسهم ، ويحسدون

(١) حديث : يوشك الناس يسألون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ، فمن خلق الله الخلق ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد يتم .

(٢) حديث جابر : ما زلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال . رواه الترمذي بإسناد جيد .

الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ، يودون أن لومنع الله الرجة عن العباد لا يطلبون الافراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديعة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفتدة ، أوئك هم الحاسدون الضالون .

وكما تضافرت الأسباب بالاجتماع في المجالس ، والتجاور في المنازل . والاشترك في الحرمة ، والاقتراب بالنسب أوالمصاهرة كان اضطرام نارالحسد أشد ، وامتداد هليها أسرع ، وازداد سعيها ، وطفى شررها ، وغلت مراحلها ، فزاد احراقها لمواد المحبات ، وإبادتها للمذات المودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذلك شرا ويلا ، وعذابا ليلا . قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام : « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تباؤروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال أنس : « كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجحيم فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبي ﷺ : « مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص وزنه ثلاثة أيام في بيته فلم يجده يصلى بالليل ، فاحترق عمل الرجل ، فسأله ما الذي بلغ بك ؟ فقال هو ما رأيت ، غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق . وقال ﷺ : « ثلاثة لا ينجمون من أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدثكم بالخروج من ذلك : اذا ظننت فلا تحقق ، واذا تطيرت فامض ، واذا حسدت فلا تبغ » . وقال الشاعر :

يا أحمد اقنع بالذي أوتيته * ان كنت لاترضى لفسك ذلها

واعلم بأن الله جلّ جلاله * لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك زيران الحسد التي يشرها أسبابها ، وتفكر في مصائبه ورذائله ، وما ينجم عنه من العذاب الأليم في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد ، وتنقص عيشه ألا ترى أن نعم الله مترادفة لا ينقطع مددها ، ولا ينفذ خيرها ، ومن ذا أشقى من عدّ نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودار شقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أو يمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده . فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات لآعباد وهنأهم وراحتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم فتأهوا في أودية الضلالات ، فعدّوا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوا لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقلت :

وفي القلب زيران وفي القلب جنة * وما أكثر الآلام إلا من العسكر

وكيفي الحاسد عذابا أنه معذب بعيم غيره ، مع قب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمي الحاسد زوال نعمة المحسودين يشقى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذي يكمد

لازلت محسودا على نعمة * فأما السكامل من يحسد



الثبات والعزيمة

الثبات المدائمة على العمل ، والعزيمة من أحوال الارادة ، والثبات حال داعية لادامة العمل إلى النهاية .
كم في الناس من عامل ، وقلّ أولوالعزم ، ولم ينل الرغائب ، ويحظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن
ساعد الجذ ، وامتنطى العمل .

دراك المعالي في اقتحام المخاوف * ونيل الأماني في ارتقاء التناقف
وما نال مجدا من أدارعروسه * وبانت تعاطيه سلاف المرافف
وقد قلت

إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف * فاني شممت اليوم منهاشذا العرف
وما جمع امرؤ أمره ، وجدّ في طلب ما يروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالي ، وقاز بالسعادة
والكمال ، وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولوالعزم من الرسل » وقصّ عليه
أبناءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة في مقابلة الباعث للشرّ والرذيلة ، وذلك أن الانسان يشارك الدواب
في الشهوة والغضب ، وليس للصبي ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقمهر الشهوات ، ولا من رادع يردع
عن اللذات ، إلا إنما يظهر جهادهما ، ويبين التغاضي عنهما ، والتخلى من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر
وإذ كر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذ سبيلا ، وسبيل النقي فلم يتخذ سبيلا .
وبذلك يمتاز العاقل من الانسان عن المجنون والصبي والحيوان ، والحيوان أسير شهواته ، والعاقل من
الانسان عليم بما يعقب الأسر من الازلال ، وما يجرّ من الوبال ، وهناك تبدى داعية المجاهدة ، وتولد في
النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هي المسماة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك
الضلال والغواية ، ألا وان العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأفقس ، وتلك الحال
تتم الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر في الأخلاق كالحديد في الصناعات والملح في الطعام ، فلا ترى طاعة ، ولا خلقا حسنا إلا والصبر
مفتاحه وعماده وقوامه ، ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ، فمن احتمل المرض والألم
والجراح المصممة ، وقام بالأعمال الشريفة في عبادة يقيهما ، أو زراعة يتقنها ، أو صناعة يحسنها ، أو تجارة
يديرها ، أو إدارة ينظمها ، فهو من الصابرين في الرعين : الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن ركب نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتي البطن والفرج فهو العفيف حتى لا يطع داعي الهوى والزينة ،
ولا يتداني من المحرمات ، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لثابت الدهر صابرا ، والافهوا الجازع والمهلوع ،
رفع الصوت ، وضرب الحد ، وشق الحيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

وإذا لم تستقره داعيات الغنى ، فهو الصابط لنفسه ، والافهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وان قاوم الأقران في ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع والافهو الجبان ، وان كظم غيظه ، ولزم السكينة عند احتياج الغضب ، فهو الحليم والافهو الأحمق السفيه .

كتم السرّ وافشاؤه

وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسرّ ، والافهو المغشى للأسرار ، فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فصول العيش فهو الراضى ، والافهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر ماترك بابا من الأخلاق إلا وجهه ، ولاخصلة لإقرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الايمان [هو الصبر] . ولما كانت أحوال الانسان لا تخلو من مكروه يحتمله ، أو محبوب يشكر عليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الايمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان المصبور عليه إما شهوة وإما غصبا ، كان الصوم صبورا عن شهوتى البطن والفرج ، لا العضب ، ولذا طهر سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الايمان ، وقد يراد بالايمان ما يشمل العلم والعمل ، ولاعمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الايمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أتم عليه أحبّ إلى من أن يأتيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى فينكر بعصمكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : [ما عندكم ينفد وما عند الله باق] » .

وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : الصبر والسحابة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصبر كزمن كوز الجنة . وعن عطاء عن ابن عباس قل : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمؤمنون أتمم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يا رسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرضاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة . وقال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ، وإنما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار ولثمار فختلفت الألوان لتعدد الأشكال ، واحذر أن تضلّ في الألفاظ ، وارع المعاني ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

الشجاعة

الشجاعة هي الاقدام على الأهوال مع الروية والتدبير ، ومن أهدم بلاروبة أو أحجم وقد فاجأه العدو فليس شجاع ، واما هوى الأولى متهوّر ، وفي الثانية جان صعيّف . الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها منها

منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أمهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لا يقضون له حاجة ، ولا يسمعون له قولاً ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، وما من أمة فقدت شجاعته ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباعوا بفضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم ترى عمرو بن كثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل ابن ربيعة أخی كليب وأهل أم عمرو بن كثوم باليلي ناوليني الطبق كيف تحمسن ابن كثوم وقتله وقال في معاقته :

أبا هند فلاتجمل علينا * وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات ييضا * ونصدرهق جرا قد روينا
بأى مشيئة عمرو بن هند * نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها * ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلعنا * ولكنا سنبدأ ظالمينا

افرط وغلاها في القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبين . الجبين مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكري كليباً التغلبي بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس فأنزل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالائم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتقانى الحيان نكر وتعلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون النمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأي فضيلة ، ذلك شرف وأي شرف ، فخر وأي فخر ، ولكه مصحوب بالجهل تابع لزعات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، ويصلح فاسدها ، ولوتبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحية فيها جاهلية ، والنصر تابعاً للعصية ، لالاعدل في القضية ، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فدجن أحوج إلى عقل يقو منا ، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تنجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين » . وقال : « يأيتها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ونز من الظم فقال : « فلك بيوتهم خاوية بما طاعوا » .

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حية الجاهلية الأولى ، الحية الميكانية اوقتية ، واما دلت بأحسن منها وهي الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقاً وغرباً . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقوا لا أعروا في أحرار قن بارحهم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليكفوا كثيراً » . ما أشأم أمة لأمة الخثرة العزيمة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تصاحكها الأيام فيلدا ، ودمع عن أرائك رحمة مسكرين ، وتسم لحب نعور الزهر على أشجار الحطل في ساحة العرس الحلى ، حتى دوت وفه . وورمت قارعة ، وحكمت القسا

والقضب في أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابنسأماها ، وذاقوا مرّ الخنظل قطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلمهم ورقه الناضر ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابرا قوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا في ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه في قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

إن ينقضّ ببيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحق ولوكره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا إذا قام المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخاملة . ولعمرك إن الشجاعة في مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأما ، وأشرف مثالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قومة ، والزمامشعة ، والسيوف مصلطة ، ألا إن العالم يتوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصديقيون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون كأبي بكر الصديق وطاوس العياشي وسفيان الثوري وعتاب بن أبي رباح وأبي حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، أولئك الذين هدى الله فقالوا الحق وصدقوا في المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

[روى] عن ضبة بن محسن العنزي قال : كان عليا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فعاظني ذلك منه ، فقلت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لى في خطبتي ، فكتب إلي عمر أن أشخصه إلى قال فأشخصني إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلي فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لى : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر اشخاصى من من مصرى بلاذب أذنبته ، ولا شيء أنيته ، فقال ما الذى شجر بينك وبين عاملى ، قال قلت الآن أخبرك به : انه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك ، فعاظني ذلك منه ، فقلت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكوني ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه با كيا وهو يقول : أنت والله أوفى منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبي بغفر الله لك قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع ما كيا وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك ليلته ويومه ؟ قلت نعم . قال : أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يمينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبى بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا على أطراف أصابعه حتى حميت ، فلما رأى أبو بكر انها قد حميت حمله على عاتقه . وجعل يشتد به حتى أتى فم العار فأرله ثم قال : والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ون كان فيه شيء نزل بى قلبك قل فدخله فلم ير فيه شيئا فدخله وأدخله ، وكان فى العار حرق فيه حيات وأفع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذبه ، وجعلن يضربن أنا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأترى الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم : فلى ولازكى فأبنته لا آلو نصحا فقلت يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فهاذا أتألفهم ، قبض رسول الله ﷺ فارتفع الوحى ، فوالله لو منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبى موسى يلوهم . أما طاووس الأيماني فإنه كان من التابعين ، وكان من حديثه مع هشام ابن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظمى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حبات كالقلال ، وعقارب كالبعال ، تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .

وأما سفیان الثورى فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : انما زلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه .

وأما عطاء بن أبى رباح فإنه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه ، قال ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتنفق أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم فإنه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أى الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأبى المؤمنين أخسر ، قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه .

وأما عمر بن عبد العزيز فإنه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقبلة الرجل ، قال عمر : هذا صوت رحته فكيف اذا سمعت صوت عذابه . قيل ان عبد الملك ابن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمران فقال مهلا يا أمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وما ذاك ؟ فقال ان الناس قالوا له ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بيده وبينه الكلام ، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : انكم تأمرون ولا تأمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون ولا تعظون ، أنفقتى بسيرتكم فى أنفسكم أم تطيع أمركم بألسنتكم ؟ فان قلتهم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ؟ وان قلتهم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دماننا وأموالنا ، أو ماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظائم ، فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها بفاوا سبيلها وأطلقوا عقابها يتدبرها أهلها الذين قاتلتهم فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله إن نقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحان حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال لأن من كرمكم فى حقه رحر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله مسموع ، ولاظلمه مرفوع ، ولادن جار عليه مردوع ، وبيدك وبين رعيته مقام نذوب فيه الجمال حيث ملكك هناك حامل ، وعزك زائل ، وباصرك خاذل ، والحاكم عليك عدل ، فكعب عند الملك على وجهه يبكى ، ثم قال له فما حاجتك ؟ فقال عاملك بالسيارة صاعنى ، وإياله هو . ومهاره لهو ، ونظره زهو . فكاتب إليه باعطاءه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ في كتاب [البيان والتبيين] حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما ، فكتب إليه زياد : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظرا ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوي ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رقعا على عبد فاتق الله لجعل الله له منهما مخرجا والسلام » ثم أمر المنادي فنادى في الناس أن اغدوا على غنائمكم قسمها بينهم .

وأنا نحمد من ضبة ومن بعدهم صدقهم ولكن لا نشاد الناس مشادتهم ، قل الحق وتاطف ، لا تكن فظا فلعلك مقام مقال ، وللكلام مواطن . ولقد جرتب الناس قديما القول فرأوا أنجه في العقول أطفه ، وأنفعه في النفوس أجله . قال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام : « فقولا له قولنا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال تعالى على لسان نبيه عليه السلام : « وإما أواياكم لعلى هدى أوفى ضلال ميين » .

فياك أن تقلد كل مانسمع ، بل اعرض كل شيء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » . وإذا قرأت في تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس في مملكة ليديا وهو في أهنته وسلطانه وعظمته متجملا بأغفر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الخلى المسكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال اكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسي ؟ فقال نعم الديوك الأهلية والبرية والطاوس ، فقضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد مني ؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أئينا مات سعيدا قريبا العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، ويلي أخوان اسم أحدهما [كايوبيس] واسم الآخر [بيطون] ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أهمما الصالحة ، حتى انهما جريا عربتها إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فاما صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب اكرسيوس وظن أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله [سولون] فزخ عن النار ، وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فأضحخ قلبه وأطلقه .

وإذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى [بيدبا] مؤلف كتاب [كيلة ودمنة] وقد دخل على ملك الهند وأغظله في القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضمت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضمت العباد ، فخبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق ، ووطنوا أنفسهم على المسكاره ، نفذ من البارضوها ، واعتدل في قولك ، وتابعهم في قول الحق ، واصلاح شأن الأمة ، واعدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، وقرأ قوله تعالى : « وقل اعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقوله تعالى : « وليتلف » .

واعلم أن الأطباء إنما يضعون الدواء المر في غلاف لسهل تعاطيه ، فلنكن أطباء صالحين . وإذا رأيت نفسك خائرة القوة ، هيابة ، تفر من الظلام ، وتفزع من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خربها وخودها ، وحركها إلى الأنتة والشهم والاباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ما حكاها ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين انه كان يعتمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ،

ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات في المخاوف ويهيج منها القوة التي تسكن عند الحاجة الى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

واقعد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسي علم الشجاعة كما في ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكري ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكري كما في سويسرا ، ألافلتعلم مصر ذلك كما أوضحنا في كتابنا [نهضة الأمة وحياتها] الذي قصدت به نظام الأمة علما وسياسة وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم في الأدهم ، ولعلكم قرأتم كتاب [السبق والرمي] في علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة ، فاذا لم توظف الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الانسانية ، فذلك أبقى للام وأحسن وأشجع للأفراد ، فاذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحاق بالناس الهلاك : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أسئلة

- (١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .
- (٢) قارن ما بين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية في الشجاعة .
- (٣) ماذا ترى في الشجاعة الوقتية المكانية أهي نافعة للأمم ؟ .
- (٤) وماذا يجب على مرابي الأمة المصرية في شجاعتهم ؟ .
- (٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
- (٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وما ترى في شجاعته الأدبية ؟ .
- (٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية في صدر الاسلام .
- (٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .
- (٩) مادواء الجبن ؟ .
- (١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة في الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن .
- (١١) اذا قسا المعلم على التلاميذ فاذا تكون شجاعتهم ؟
- (١٢) اذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فاذا تكون حال الأمة ؟ .
- (١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميثوا الشجاعة ؟ .

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة الاذنة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخل ، فن شاح في المحقرات وضايق في الصغائر والهبات مع الخدم ، أو أصل في مشاحة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخل ، ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخل إلا العنادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغي الايفاء ، ومنع حيث يجدر الاعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والاعطاء مرغوبا ، والافتكركم وتكفف ، سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورجة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء لرزق ، وعشق المال لداته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلتظي مهما أمدّها بالوقود واحتدم وطيسها ، وغلت مصراجلها ، وارتفع لها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليذكر الاخوان والأقران الذين طعموا كما طعم ، وجعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه ان يكن من المؤذنين المتعالمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، والله في خلقه شؤون ، وان كان ممن ارتطموا في أحوال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للوبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامة كبرى ، وآفة عظي ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة في بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عز وجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر في الحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وأياكم وهو السميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، تحت أطباق الثرى حتى لا يرى فلقد علم أنه لا ينفعه في حياته ، ولا ينفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقد قلت :
وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا * فمهدنا به يلهو وذا رائد القطر
وما هذه الدنيا سوى الروض يابعا * وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقت الركبان ثناءه ، وحتى ثمرات عملها كرتين في الدنيا والآخرة كمثل جنة بربرة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فمن أبق فلسفه يرجع النناء ، وله يكون الهناء ، ومن قتر فهو المحروم ، المبعد عن الله والناس . هاتم هؤلاء تدعون لتسفقوا في سبيل الله فسكم من يبخل ومن يبخل فإمما يبخل عن نفسه . وتذكر ما خاطب به حاتم ماوية بنت عمار :

أماوى ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى انى لا أقول لسانى * إذا جاء يوما حلّ فى مالى النكر
أماوى إما مانع فبسين * وأما عطاء لا ينهيه الزجر
أماوى ما يخى الثراء عن الغنى * إذا حشرجت يوما وضاق لها الصدر
أماوى ان يصبح صداى بقفرة * من الأرض لا ماء لدى ولا خر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضررى * وأن يدى مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالوجود من صدقة ، ويألمون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الامام الشافعى :

يا لطف قلبى على مال أفرقه * على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى * ما ليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسرّ عند السر ، ويحلو فى البدو والحضر ، ما يروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكبة وامتدحه بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجه أن يتوّه متوّا صدق ، ويعدله نزالا ومرحبا سهلا حتى يبل من مرضه ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

ان حراما قبول مدحتنا * وترك ما يرتحى من الصغد (١)
كما الدناير والدرهم فى الد * يسع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم دل حاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجشئ

بدواء ، فكتب إليه يقول :

أعجبتنا فأناك عاجل برّنا * قلا ولو أمهلتنا لم تقلل
غدا القليل وكن كأنك لم تقل * وتكون نحن كأننا لم نعمل

أذلك خير أم من صار مثلاً في الآخرين ، ونكالا في الغايرين ، كمثل أعرابي أقبل يطلب رجلا وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابي ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئا من القرآن ؟ قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . انتهى ما أردته . من كتابي « جواهر التقوى » وهذا تم الكلام على اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : « يوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

اللهم إني أجدك على نعمة العلم التي لانعمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجيل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحاً ميئنا ، وشرحت صدري لهذا التفسير ، وأصح ما في كتابك من المعاني العاتبة عن الناس أشبه بالمعوس باليد ، المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والمعلم ، وأنت رب العالمين . من ذا الذي كان يخلج في صدره أن معاني هذه الآية التي ذكرت في أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذي تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت في خواها جميع ما ينتاب الناس في الحياة الدنيا من الازلال والآلام وهم لا يشعرون :

(١) إن أول ما أيقظي لمعناها ما اتفق لي وأنا شاب ، وقد جلست مع العلائق في قرية ، وسمعتهم يذكرون رجلاً انتابه مرض خاص لا أذكره ، وكأما وضعوا البطيخ في فمه فأكبه اعترته حال شديدة فعضش فأعطوه غيره ، فظرت لي هذه الآية حالا ، وقلت في نفسي : هذه جهنم قد طهرت في معدات الانسان ، وفي حوصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهذا الذي سمعته الليلة ما هو إلا اعلام من الله لي بتفسير هذه الآية ، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمر على هذا المريض هو عينه ما يحس به الفقراء والأغنياء والعلماء والجولاء والملوك والسوقة من الرغبات التي لاحد لها في جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يفتطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة [دارالعلوم] وكنت مرّة في زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزة يوماً ثم رجعت قابلي وأنا راجع عند الكوبري رجل جعني واياه المصادفات في المدة التي فتح فيها الكوبري لمرور المراكب فقصّ عليّ قصصاً ، قال : أنا كنت متعلماً في مدرسة الألسن التي أنشأها المرحوم محمد علي باشا . ثم صرت موطماً ، وهناك أحوال خاصة أرتمتي المنزل فأصبحت لا عمل لي فلزمت بنت الخان ، وصرت مدمماً ، ولّي أصدقاء مدمرين مثلي . ولكي وقتاً فوفاً أدكر ما كنت أسمعه من الأساتذة : « إن شارب الخمر سببون أمراض تفتك بهم » وهما تقر حرب شعواء من هذه الشهوة التي ملكت قيادي وبين العلم الذي لا أشك في صدقه القاطع بضرر الخمر . وهما العباب ناصب الذي مله من دافع ، فأنا دائماً بين نارين : نار الحوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، و نار الشهوة مخروقة المطلعة على فوادي ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصلت في مسجده . وطمت من الله ، ثم بريحي من هذا المصاب ، فأتوب يومين ، ويرح لي إخوان السوء ، ويلحون عليّ ، فأرحم كبري حري . ولكن هذه

المرّة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب علىّ إيه هو التّوّاب الرحيم ، وهناك أقل الكوبرى فررنا عليه وسلم علىّ وانصرف اه
ولاجرم أن هذه حال هذا الانسان كله فما يحيط به ، غاية الأمر أن السكرى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة وأصحّة آيات كثيرة في وصف أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » .
وقوله : « فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » ، وقوله : « وقالوا ياليتنا نردّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » وقوله : « كلما نصحت جلودهم بدلناهم بجلودا غيرها ليدوقوا العذاب » .

ومن أعجب العجب أن يذكر في الأهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠
و بين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن . ٤ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث في هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر في بلادنا المصرية قدما محسوسا ، فان الفتى الذى قابلنى عند الكوبرى كان يبكى ويحزن لأجل الأمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر في بلادنا اضلال الاستعماريين من أهل أوروبا لشباننا ، و بهم استأصل داء الجهالة والغواية ، وال فقر والدين واستحکم وأفسد الطباع ، ونجح الاوروريون نجاحا عظيما في إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى في البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عا كفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مريعا خصبيا إلا في بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لا يجدون عنها محيصا كما قدمت ذلك من قبل فهن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس وماكل ومشارب وأحوالا اجتماعية لانجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارّة بالصحة ثم نذم هذه العادة التى ملكتنا ، وهانحن أولاء نسمع بحديث الفيتامين المتقدم المذكور في [سورة ص] عند قوله تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك فنجد العادات التى ورثناها لما بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وأن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة ، فنجد العادات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، وتكونوا ضعافا خوفاً من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعسدا ، فقول : هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة ، فإلنا لانبس كما يلبس العرب في البادية والمحرم بالحج ، فتقف عاداتنا سدا حصينا بيننا وبين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الأوروية قد أخذت علوم آباءنا وانتمعت بها والقرآن يحضّ عليها ، والطيّارات أحاطت بنا من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرّقون ، بالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مرا كشي أمة ، وفي سورية أمة فعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفي العراق أمة ، وفي نجد ، وفي الجزائر أمة ، وفي اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرّقون ، ونرى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آباءهم في القرون المتأخرة ، فاستمرّ التفرق ودخول الدلاء بينهم

مما لم تتصف به أمة غيرهم في زماننا من الفرس والألمان والانجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة ان شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » والحمد لله رب العالمين .

جوهرة في اعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب في بلاغة آية : يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٣ قاباني الأديب المصري الاستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في آية : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » فهناك حديثه :

قال : كنت مع الاستاذ [فسكل] وهو من أفضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بيني وبينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأى في ذكر المشاكل التي تقابله في الأدب لما يعتقد في من الصراحة ، ففي ذات يوم حمس في أذني منهيبا ، فقال : خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة ؟ أمن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ، أم لعلاك تجارى جهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كبرا عن كبر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لاتخفى على أحد وهو يحسب أنه قد أتى سهما لاسبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لى وقلت : لكي نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده فلنحاول ليظهر لنا نحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرّب ان نعبّر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون ؟ فأسكت بالقلم وأسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبّر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

- (١) إن جهنم واسعة جدا .
- (٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
- (٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل انسان .
- (٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
- (٥) إن الجنّ والانس اذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم .
- (٦) كل وصف في سعة جهنم لا يصل إلى تعريب شيء من حقيقتها .
- (٧) إن سعة جهنم لتضغ أمامها سعة السموات والأرض .
- (٨) كل ما خطر ببالك في سعة جهنم فامها لأرحب منه وأوسع .
- (٩) سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتصلوا به أو تتصوروه .
- (١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها .
- (١١) إن البلاغة الممجزة لتقصر وتجزأ أشد الجز عن وصف سعة جهنم .
- (١٢) إن سعة جهنم قد محطت أحلام الخالين وتصور المتصورين .
- (١٣) متى أسكتت بالقلم وتصدت لوصف سعة جهنم أحسست تصورك وعجزك .
- (١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا يدور بحسبان .
- (١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التي لا أذكر إلا ما ذكر لتتبدد ، اللهم وصرت ابر من . فقلت له مبنسا ابتسامة الظاهر

الواثق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهداً أن نحكيه في هذا المدنى ، فقال : هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أديناه ؟ فقلت لقد كنا أطفالاً في تأديته ، فقال مدهوشاً : وماذا قال ؟ قلت له : قال « يوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فصفق أوكاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة الممجزة ، وقال لى : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقول لك ذلك مقتباً من كل قلمي (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيباً أن تدعن للحق وأنت أديب خير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق يجيد الإنجليزية ، لأنها لغة بلاده في أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التي درس بها الأدب ، والعربية لأنها لغة الامومة ، والعربية لأنها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وفقاً عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الاستاذ [كامل كيلانى] ذلك الشاب الذى ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

موازنة بين الأدب في هذا العصر اى سنة ١٩٣٢

وفي المدة الأولى أيام شبانى في نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر في ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أعلم إذ ذاك في الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذى وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذى العلامة الشيخ محمد النجدى ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفازانى في الأدب ، وكذلك الأشمونى في النحو والصرف ، وأنصرف زمن الشباب في ذلك الأدب ، ونحن لاندوق منه شيئا ، ذلك أتى سأته خارج الدرس قائلا : يا سيدى أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه مجزى في فن البلاغة ، ولكن هل دقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقته عن الأشياخ ؟ فأجابنى قائلا . كلا . يا شيخ طنطاوى : ألا ترى أننا نضع حصصاً كاملة في إعراب بيت في كتاب الأشمونى أو اجراء استعارة تصريحية أو مكنية أو نحو ذلك ، وهى خرجنا من هذا السجن إلى جو البلاغة المضى . الهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أم الاسلام التي خالقت فيها هاهي ذه لما كنت أدرس الأدب وأشباب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أم تذهب وأم تحجى والأدب يقرأ والعاية منه مجهولة والطريق وعرة .

الهم لك الحمد والممة ، ها أنا ذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، هاهو ذا الأديب المصرى مع الأديب الأمريكى يرجعان بالأدب إلى حقيقته ويوازنان بين القرآن وكلام الناس ، وكانت النتيجة أن القرآن بليغ .

أبها المسلمون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة في الأدب أخذت تنحى ، وهاهي ذه الأجيال القادمة يهاجر لى كما قلت مرارا في هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى في شبانى معادا عينه في مشبى ، ثم تكون الآخرة خيرا من الأولى ، أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع في أمة الاسلام ، إذن ما كست أتوقعه لأمة الاسلام وذكرته كثيرا في هذا التفسير آت لا ريب فيه والحمد لله رب العالمين .

[تذكرة] في سورة الفاتحة موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور وبين بلاغة فواتح المعلقات فارجع إليها إن شئت . والى هنا تم الكلام على سورة ق والحمد لله رب العالمين .